الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الأستاذ الدكتور: فتحي بوخالفة

محاضرات مقياس الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية

[Sous-titre du document]

هذه محاضرات مقياس الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، بمختلف محاورها، وفق مقرر وزارة التعليم والعالي والبحث العلمي. وهي موجهة لطلبة السنة الثانية ماستر، شعبة الدراسات الأدبية، تخصص أدب جزائري حديث.

MAISON XP
[Choisir la date]

*أهداف المقرر:

1- تمكين الطلبة في التخصص من الانفتاح على الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية. وسيتم التركيز في هذه الحال على الأدب الجزائري الذي كتب أصلا باللغة الفرنسية.

2-الإحاطة بمختلف الأجناس الأدبية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، من حيث الأصول والتاريخ والتطور.

3-التعرف أكثر على طبيعة النصوص الأدبية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، من حيث البنى والفنية والتطور.

5-التمكن من إحداث مقارنة منهجية، بين طبيعة الآداب الجزائرية التي كتبت باللغة الفرنسية، لاسيما من حيث طبيعة لغة الكتابة الإبداعية.

6-التعرف على مكونات الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، التاريخية والحضارية، والعرقية، والفنية ،والثقافية، والأدبية،...

7-الوصول إلى إنجاز مقاربات تطبيقية، تخص طبيعة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، الفنية والأدبية.

*المكتسبات القبلية:

1-تمكين الطالب من الاقتراب من الطبيعة الفنية والأدبية، للنصوص الأدبية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.

2-وضع الطالب في الحيثيات الحضارية والتاريخية والفنية والأدبية، للنصوص الأدبية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.

3-التمكن من فهم طبيعة المحتوى الحضاري والفني والأدبي، للنصوص الأدبية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.

4-فهم طبيعة وأنماط التحولات التاريخية والفنية والأدبية، للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، وفق مقتضيات إرادة هذا الأدب في التحرر من التبعية، لغيره من الآداب العربية والعالمية الأخرى.

5-فهم طبيعة الاختلاف اللغوي في الكتابة الإبداعية، للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية.

6-فهم طبيعة الأنماط المحلية للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية.

*مفردات المقرر:

1-المحاضرة الأولى: الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية-تفسير المرجعية التاريخية والتطور-

2-المحاضرة الثانية: الكتابة الأدبية الفرنكفونية في الجزائر-تفسير التطورات التاريخية-

3-المحاضرة الثالثة: الحركية الثقافية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى-الأنموذج والتطور-

4-المحاضرة الرابعة: التعايش الثقافي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية-الاستمرارية والمفارقة-

5- المحاضرة الخامسة: الحركية الثقافية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى-الحتميات التاريخية الجديدة-

6- المحاضرة السادسة: التنوع الأدبي الفرنكفوني في الجزائر-الملامح التاريخية والتطورات الجديدة-

7- المحاضرة السابعة: النقد التنظيري الفرنكفوني في الجزائر-رؤية في التطور التاريخي-

*الفئات المستهدفة:

هذه المحاضرات موجهة لطلبة السنة الثانية ماستر، شعبة الدراسات الأدبية، تخصص الأدب الجزائري الحديث.

*الفرش التمهيدي:

مثل الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، ظاهرة أدبية متفردة في الأدب الجزائري الحديث، وفق خصوصياته المتنوعة، وهذا تبعا لطبيعة الأجناس الأدبية المختلفة التي يزخر بها.

ونتيجة لقيمة وأهمية هذا الأدب، الذي تبوأ مكانة عالمية مرموقة ضمن الآداب الإنسانية الشهيرة، كان لزاما الاهتمام بأهم خصوصياته الفنية والجمالية، تبعا لما اتسم به من تطورات هامة عبر مساراته التاريخية، لاسيما أنه أدب اختص أساسا، برصد طبيعة الذات الجزائرية المحلية، وخصوصياتها الحضارية.

رغم أنه أدب ينطق بلغة غير اللغة الحضارية للمجتمع الجزائري، غير أنه لم ينافي مطلقا القيم الحضارية لهذا المجتمع، من حيث كون اللغة الفرنسية كآلية تعبيرية أدبية وجمالية، هي نتاج طبيعي للعوامل التاريخية التي حتمت وجودها وترسيخها في الأوساط الاجتماعية الجزائرية. من هذا المنطلق يكون الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، إمكانية جمالية هامة، للتعريف بالذات الجزائرية بلغة الآخر، وفق مقتضيات علاقات الصراع القائمة، التي تحتم دوما إثبات وجود الذات المحلية، والحفاظ عليها من الانسلاخ والذوبان في الأنسجة الحضارية الغربية المختلفة.

يهتم مقياس الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، بطرح مختلف الانشغالات الفكرية والجمالية والمضمونية، لمختلف الآداب الجزائرية التي كتبت أصلا باللغة الفرنسية،وبأيادي كتاب وشعراء جزائريين، كما لايهمل المنجز النقدي الذي أنجز في هذا الصدد. ومن خلال محاور ومحاضرات متنوعة، يمكن الإحاطة بشكل هام للغاية، بمختلف قضايا هذا الأدب، وتتبع مساراته وتطوراته التاريخية المتعاقبة.

المحاضرة الأولى

الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية–تفسير المرجعية التاريخية والتطور–

في الغالب الأعم ما يعود في التأريخ للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية،إلى مقولات الباحث الفرنسي"جون ديجو"[1]،الذي يرجع أول نص جزائري كتب،هو قصة"انتقام الشيخ"،للكاتب الجزائري"محمد بن رحال"[2].وهي القصة التي ظهرت سنة ألف وثماني مائة وواحد وتسعين، نشرت في المجلة الجزائرية التونسية الأدبية والفنية[3].والقصة بحسب ما يذكر جون ديجو مأخوذة أصلا من الحياة الاجتماعية للمجتمع الجزائري،والذي كان غالبا ما تطبعه التقاليد المتوارثة عن الأجداد،لاسيما أن النص ظهر في فترة متقدمة نوعا ما،من تاريخ الثقافة الجزائرية.

والملاحظ أن سنة ألف وثماني مائة وواحد وتسعين،سنة متقدمة نسبيا في تاريخ الثقافة الجزائرية،إذا ما تم الأخذ بعين الاعتبار المعيار التاريخي،والمتمثل في الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر منذ سنة ألف وثماني مائة وثلايين ميلادي.حيث أن هذه الفترة الفاصلة ما بين بداية التواجد الاستعماري في الجزائر وسنة ألف وثماني مائة وواحد وتسعين،تقدر بواحد وستين سنة على وجه التقريب.وفي ذلك تطرح تساؤلا هامة حول واقع الثقافة الجزائرية وكذا الأدب الجزائري بشكل عام،مع استثناء الأدب الشعبي طبعا،الذي بقي محافظا على سيرورته وتطوره بحكم التلقائية التي يتميز بها،وكذا الطابع الشعبي الذي يجعله ملكا لأي موهوب في النظم والرواية.

إن فترة الفراغ الثقافي في الجزائر،خلال واحد وستين سنة في أواسط وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي،تحدد طبيعة العقيدة الاستعمارية التي أنتجت ظرفا تاريخيا لا يستجيب لمعطيات التحولات الاجتماعية،التي كان ينبغي لها أن تسود في أوانها.ويدرك جيدا المؤرخون الآثار السلبية التي صنعها الظرف التاريخي ،الناتج عن التواجد الاستعماري في الجزائر على الثقافة الجزائرية بشكل جوهري.والحقيقة أن الظرف التاريخي لا يصنع واقعا ثقافيا كما يمكن أن يتبارد إلى الأذهان منذ الوهلة

---

[1] -jean déjeux,situation de la littérature maghrébine de langue française,opu,alger1982,p18

[2] هو أحد المثقفين الوهرانيين المعروفين،الذين اشتهروا بنضالهم الطويل من أجل الحفاظ على الهوية الجزائرية،وتعليم اللغة العربية لأبناء الجزائريين.يراجع في ذلك كتاب،عبد القادر جغلول:تاريخ الجزائر الحديث،دراسة سوسيولوجية،ترجمة فيصل عباس،دار الحداثة،بيروت/لبنان،الطبعة الثانية1982،من صفحة59إلى صفحة124.

[3]la revue algérienne et tunisienne,littérature et artistique,n°13,du,page,26/09/03/10/189.c.f,jean déjeux,situation de la littérature maghrébine de langue française,p,18

الأولى؛إنما الظرف التاريخي هو النتاج الطبيعي،لتحولات اجتماعية وطبقية هي من صميم البنية الاقتصادية التي كان يعرفها المجتمع الجزائري آنذاك،والتي صنعها الاستعمار الفرنسي أثناء تواجده في الجزائر.

وبحكم وجود إنتاج أدبي خلال تلك الفترة التاريخية(فترة الفراغ الثقافي)،فهذا يعود إلى طبيعة الظرف التاريخي الذي عرفته الجزائر وقتها.وهو ظرف قام على فوارق طبقية هي من صميم العقلية الكولونيالية التي أرادها المستعمر.

ويعطي الفراغ الثقافي في الجزائر وقتها،نتيجة حتمية بقلة الإنتاج الأدبي والإبداعي،وهذا ما يقره جون ديجو،عندما يحدد فترة البحث التي قام بها،على مستوى الجرائد والمجلات التي كان يصدرها في ذلك الوقت المعمرون في الجزائر.وهي الفترة التي امتدت ما بين ألف وثماني مائة وثمانين وألف وتسعمائة وعشرين ميلادي،حيث لم يعثر الباحث إلا على نصوص قليلة جدا وبأسماء مستعارة،يعتقد أنها لمستوطنين فرنسيين،باستثناء الكاتب"أحمد بوري"،الذي نشر سنة ألف وتسعمائة واثني عشر رواية"مسلمون ومسيحيون"في جريدة "الحق" بشكل متسلسل[1]،وهي رواية تتجاوز كثيرا تناقضات الواقع الاجتماعي للجزائريين،حيث تركز على صفة الانسجام بين الجزائريين والفرنسيين،وهذه ليست الحقيقة.ربما أن العقلية الثقافية الجزائرية وقتها،اعتقدت في لحظة تاريخية معينة،أن الوجود الاستعماري بدأ يأخذ طبيعته التاريخية،وتواجده الطبيعي الحتمي في الجزائر،بحكم بداية طول المدة الزمنية نوعا ما.مع أن المسألة في حقيقتها العميقة تتجاوز تلك العقيدة،بحكم علاقات الصراع المتبادلة بين الطرفين.حيث يمكن الإقرار بانتفاء حالة الاستقرار في المجتمع الجزائري،خلال فترة الاحتلال الفرنسي،نتيجة الفوارق الطبقية القائمة.

---

[1] يذكر الباحث الجزائري أحمد الأنصاري،عنوانا آخر لهذه الرواية،وهو"مسلمون ومسيحيات"في تقديمه للطبعة الجديدة لرواية محمد ولد الشيخ"مريم بين النخيل".يراجع في ذلك:
Myriem dans les palmes,opu,coll.textes anciens,alger1985,introduction de lansari ahmed,p01.

وخلال الفترة نفسها وجدت المجموعة الشعرية"أنداء مشرقية لـ"سالم القبي"[1]،وهي المجموعة التي نشرت سنة ألف وتسعمائة وسبعة عشر.ولا تختلف المجموعة عن الرواية المذكورة،من حيث التوجه الشعاراتي في تمجيد الدين الإسلامي،والماضي التليد للحضارة المشرقية،وحتى فرنسا.

ونتيجة الفراغ المسجل على مستوى الثقافة الجزائرية ما بين سنة ألف وثماني مائة وواحد وتسعين،وعشرينيات القرن الماضي،حيث شهدت فترة الفراغ تلك ظهور رواية "انتقام الشيخ"،وكذا عدة نصوص أدبية لجزائريين كتبوا باللغة الفرنسية،لاسيما في مجال الرواية؛يرى الباحث جون ديجو أن سنة ألف وتسعمائة وعشرين،كانت الانطلاقة الفعلية لأدب جزائري ناشئ باللغة الفرنسية،ولعل رواية "أحمد بن مصطفى القومي"للكاتب"القايد بن شريف"[2]،مثلت الانطلاقة الفعلية للأدب الجزائري الحديث المكتوب باللغة الفرنسية،حيث مثلت أول رواية كتبها جزائري باللغة الفرنسية[3].

وإذا كان بالإمكان اعتبار سنة ألف وتسعمائة وعشرين البداية الفعلية للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية،وهذا ما يذهب إليه العديد من الباحثين المهتمين بالتأريخ للأدب الجزائري بشكل عام،فهناك نصوص أدبية ظهرت في الجزائر خلال تلك الفترة،وهي غالبا نصوص أدبية يتجاهلها العديد من الباحثين الفرنسيين.ومن جانب آخر فطول المدة التي تفصل بين تاريخ احتلال الجزائر،وسنة ألف وتسعمائة وعشرين مدة طويلة تقدر بتسعين سنة من الاحتلال.وطبيعي جدا أن تسجل حالة من الفراغ الثقافي في المجتمع الجزائري،وأن تكون النصوص الأدبية المنتجة ضئيلة للغاية نتيجة ذلك العامل التاريخي.هذا بالمقارنة مع ما كان ينتج قبيل فترة الاحتلال،أثناء العهد العثماني من إبداعات شعرية وسردية،وحتى خلال السنوات الأولى من الاحتلال.حيث كانت بداية فترة الفراغ الثقافي الفعلية في الجزائر،بعد نهاية مقاومة "الأمير عبد القادر الجزائري"،ونفيه،وهجرة ما تبقى من علماء ومفكرين معه،وانتشارهم في مختلف أنحاء العالم العربي.

[1] يشير ديجو بشأن هذا الرجل أنه تلقى رسالة،من الباحث الجزائري عبد القادر جغلول،يبلغه فيها أن سالما القبي لم يكن جزائريا مسلما،وإنما هو اسم مستعار لأحد أفراد الطائفة اليهودية التي كانت تقطن تلمسان.إلا أن ديجو يشك بدوره في صحة هذه المعلومة،ويستدل على ذلك بإشادة المؤلف بالإسلام،يراجع في ذلك كتاب: jean déjeux,situation de la littérature maghrébine de langue française

[2] jean déjeux ,situation de la littérature maghrébine de langue française, ,puf,paris1979p19

[3] jean déjeux,la littérature algérienne d'expréssion française.col.que-sais-je,puf,paris1979,p59

إن العامل التاريخي الذي سبب حالة الفراغ الثقافي في الجزائر،يستند في أساسه لعامل أساسي هو الصراع الذي أصبح دائرا بين الجزائريين والفرنسيين.وهو الصراع الذي غالبا ما يبرر بظاهرة التفاوت الطبقي والاجتماعي،بحكم سيادة عامل الاستغلال؛استغلال الإنسان والثروة الذي عادة ما ينتج اختلالا في موازين العدل على المستوى الاجتماعي،الذي صار يعرف المزيد من التداعيات على مستوى التعليم والصحة والنمط المعيشي للأفراد.

ويقين أن مثل تلك العوامل لها سلبيات حقيقية وانعكاسات على مستوى الأنشطة الثقافية والإبداعية.ولا يمكن بأي حال من الأحوال الفهم،أن ما أنتج من نصوص أدبية خلال فترة الفراغ الثقافي تلك،يمكن أن تفسر خارج عوامل أخرى ،دون العامل الاقتصادي الصرف الذي أنتجه التواجد الاستعماري في الجزائر.

والحديث عن تطور الأجناس الأدبية في الجزائر،منذ بداية الإنناج الأدبي لا يستدعي إلى الوجود أعمالا أدبية مميزة،لأنها كانت مفقودة آنذاك،بحكم الغياب الكبير للتعليم والمقروئية.والحديث عن العلاقة الانعكاسية بين الأدب والواقع تبدو صعبة نوعا ما،نتيجة ضعف المستوى الثقافي في الجزائر في ذلك الوقت.ومع ذلك هذا لا ينفي الإقرار،بأن مجمل الأعمال الأدبية التي ظهرت في ذلك الوقت،هي نتاج التطور التاريخي للواقع الجزائري،الذي هو النتاج الفعلي للتحولات الاقتصادية والطبقية الجديدة التي أنتجها الظرف الاستعماري.

المحاضرة الثانية

الكتابة الأدبية الفرنكفونية في الجزائر–تفسير التطورات التاريخية–

بحلول سنة ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين ميلادي(1948م)،بدأت الكتابة الأدبية الإبداعية في الجزائر،تعرف خروجا عن المضامين التقليدية المتوارثة،والتي سارت عليها مضامين الروايات الجزائرية التي كتبت باللغة الفرنسية من قبل.وكانت البداية بصدور روايتي"إدريس"للكاتب"علي الحمامي"،و"لبيك"للكاتب والمفكر"مالك بن نبي".وتذهب الدراسات المتخصصة في مجال النقد الأدبي،أن كلا الكاتبين كانا بعيدين عن الفكر الإندماجي،الذي دعت إليه خلال تلك الفترة"حركة الفتيان الجزائريين"،وسبق لكتاب الروايات السابقة أن تبنوه واقتربوا منه،وأثروه في أعمالهم الأدبية التي صدرت. الكاتب علي الحمامي[1]أحد المناضلين الجزائريين الذين عرفوا بكفاحهم الذؤوب ضد الاستعمار سواء بالفكر أو السلاح.واختار التعبير عن الوعي الوطني وكفاح شعوب شمال إفريقيا،وتطلعها للانعتاق من ربقة الاستعمار،من خلال كتابته عن وقائع ثورة الريف المغربي بقيادة"عبد الكريم الخطابي"سنة ألف وتسعمائة وثلاثة وعشرين ميلادي(1923م)،التي شارك فيها الكاتب شخصيا رفقة الأمير "عبد المالك" الجزائري حفيد الأمير "عبد القادر"[2].حيث كان الأمير عبد المالك يقيم بالمغرب الأقصى،وقاد تلك المقارمة المعروفة رفقة عبد الكريم الخطابي[3].الشئ الذي يفسر أن الطبعة الأولى من هذه الرواية،التي كانت سباقة لمعالجة موضوع الكفاح المسلح ضد الاستعمار،قد نشرت بالقاهرة[4]،لأنه من غير الممكن إصدار رواية تتحدث عن الكفاح المسلح للتحرر من ربقة المستعمر في الجزائر[5].

---

[1] توفي في حادث سقوط طائرة في الثاني عشر من شهر ديسمبر سنة ألف وتسعمائة وتسعة وأربعين ميلادي(12/ديسمبر/1949م)،بكراتشي،وهو في طريق عودته من المؤتمر الاقتصادي الإسلامي،الذي انعقد في باكستان بعد أن مثل الحركة الوطنية الجزائرية في المؤتمر المذكور.يراجع في ذلك:

-amar belkhodja,ali el-hammami et la montée du nationalisme algérien,ed,dahlab,alger1991,p,23

[2] د.أحمد منور:الأدب الجزائري باللسان الفرنسي–نشأته،وتطوره،وقضاياه–الطبعة الأولى لديوان المطبوعات الجامعية–الجزائر2007،ص:104

[3] amar belkhodja,ali el-hammami et la montée du nationalisme algérien,p,12

[4] jean déjeux,dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française,ed,karthala,paris,1984,p,105

[5] أعادت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر،طبعها سنة1976م،وسنة1988م.

أما مالك بن نبي فمعروف عنه أنه مفكر إسلامي،عبر عن رؤيته الفكرية في كتابه الشهير"الظاهرة القرآنية"،الذي كان قد صدر قبل عام واحد من صدور روايته"لبيك".

يعالج الكاتب في هذه الرواية موضوعا أخلاقيا هو تعاطي الخمور لدى الجزائريين.وهو الموضوع الذي شكل هاجسا كبيرا لدى كتاب العشرينيات من القرن الماضي في الجزائر.لكن المعالجة كانت من منظور جديد،وضمن تصور نظري مأخوذ أساسا من كتابه "شروط النهضة"التي من منظوره لا يمكن أن تتحقق إلا بالعودة،إلى الأصول الحضارية للأمة الجزائرية.ويمثل الدين الإسلامي أهم هذه الشروط التي تستوجب التحقق،حتى تكتمل شروط النهضة.وعلى أساس العودة إلى تلك الأصول الحضارية،يعطي المؤلف الحل في الرواية،ولا يترك بطلها حائرا ينتظر مصيره المحتوم في قدرية وعجز تامين.وهو على النقيض من ذلك بالنسبة لبطل رواية"زهراء امرأة المنجمي"لـ"عبد القادر حاج حمو"،ورواية"مأمون"للكاتب "شكري خوجة".ويكمن الحل الذي اقترحته رواية "لبيك" في توبة البطل،وذهابه إلى البقاع المقدسة لأداء مناسك الحج،ومن هنا كان عنوان الرواية"لبيك".وبهذه الرؤية يؤكد الكاتب مالك بن نبي،أن الشعب الجزائري لم يضع منه شئ ،كما أنه لم يضيع أي شئ.وأنه يمكنه النهوض مجددا والعودة للمشاركة في صنع التاريخ،واستعادة شخصيته،في حال تمسكه بعقيدته الدينية التي تمثل فعلا سبيلا لتحرره وضمانا لاستمرارية وجوده.

بالمقارنة مع الكتابات الروائية السابقة،تكون رواية "لبيك"لمالك بن نبي،قد حددت مسارا جديدا في فهم واستيعاب حركية التاريخ،وفق منطق التحولات التي تعرفها.ومع أن مضمون الرواية سلفي ديني إلى حد ما،فالتركيز على الجوانب الأخلاقية مثل أنموذجا نوعيا في جعل الشخصية الجزائرية،قابلة للاستعادة والنهوض مجددا،لأنها شخصية موجودة في أساسها وغير مفتقدة.

وأن يعمد بطل الرواية للتوبة،والإقلاع عن العادات الأخلاقية المشينة،يعطي الحدث الروائي إمكانية التواصل،مع التحولات الجديدة التي بدأ يعرفها المجتمع الجزائري،من خلال التركيز على القيم الحضارية في أبعادها الدينية،وجعلها أنموذجا أساسيا لفهم طبيعة التحولات الجدلية الجديدة،التي تتطلب المزيد من الوعي وفق مقتضيات الواقع القائم آنذاك.

وبصدور الجزء الأول من ثلاثية "محمد ديب" الشهيرة"الدار الكبيرة" سنة ألف وتسعمائة واثنين وخمسين(1952م)[1] ،كانت الكتابة الأدبية الفرنكفونية في الجزائر،قد خطت خطوات هامة جدا.حيث شكلت بداية ظهور الثلاثية منعطفا حاسما،في تطور الكتابة الروائية في الجزائر ككل لاسيما على مستوى المضمون.فللمرة الأولى تتجاوز الكتابة الروائية الجزائرية صالونات المثقفين،ومناقشاتهم الأرستقراطية عن مبادئ العدالة والمساواة،في ظل الوجود الفرنسي،ووهم التعايش السلمي بين الجزائريين"الأهالي"والمعمرين الأجانب،من خلال دعوات الإدماج والزواج المختلط؛إذ نزلت الرواية الجزائرية إلى الطبقات الاجتماعية الدنيا من المجتمع الجزائري،وصارت تتحدث عن انشغالات أبناء المجتمع البسطاء،وتصف أحوالهم المعيشية القاسية.كما تحدثت عن بؤسهم الاجتماعي ومعاناتهم من الفقر والجوع والقهر بمختلف أنواعه.

وجديد الرواية الجزائرية خلال تلك الفترة التاريخية،أنها تحدثت عن نضال الجزائريين السياسي،من خلال تشخيص مناضلين كانوا ينشطون في الخفاء،نتيجة مطاردة الشرطة الفرنسية لهم[2].كما طرحت وقتها لأول مرة،تساؤلات محددة وصريحة عن الهوية الوطنية،ومفهوم الوطن،والهوية الحقيقية للجزائريين.

تأكد هذا التوجه الجديد أكثر في أعمال الكاتب محمد ديب اللاحقة،خصوصا في الجزء الثاني من الثلاثية"الحريق"،الذي صدر سنة ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين(1954م)[3].والجزء الثالث والأخير من الثلاثية"النول" الذي نشر سنة ألف وتسعمائة وسبعة وخمسين(1957م)[4]؛إذ شكل الجزءان امتدادا طبيعيا،وتكملة منهجية للجزء الأول من الثلايية"الدار الكبيرة".يفهم القارئ في الجزء الأول من الثلاثية حيثيات هامة جدا،عن الحياة الاجتماعية للأسر الجزائرية البائسة،ضمن حيز مكاني معين،هو"دار سبيطار".فقد حرص المتخيل السردي على تقديم خصوصيات تلك الحياة التي غالبا ما خضعت للجوع والفقر والحرمان،وقمع أجهزة المستعمر للسكان المقيمين.في حين صور الجزء الثاني عالم البؤس في الريف الجزائري،ومعاناة الفلاحين من الفقر المدقع،واستغلال المعمرين الفاحش لقوى

---

[1] Mohamed Dib :La Grande Maison,ed,Seuil,Paris,1952

[2] تمثلهم في الرواية شخصية المناضل حميد سراج.

[3] Mohamed Dib :L’incendie,ed,Seuil,Paris,1954

[4] Mohamed Bib :le métier a tisser,ed,Seuil,Paris,1957

الفلاح الجزائري،واستنزاف خيرات الأرض.وتضمن الجزء الثالث تصوير حياة الحرفيين والعمال الجزائريين في المدن،والتي في الحقيقة لم تكن تختلف كثيرا عن حياة الفلاحين الجزائريين في الأرياف،إلا في نوع المهنة الممارسة،ونوعية الأوروبي المستغل.

من الواضح جدا أن سنة ألف وتسعمائة واثنين وخمسين(1952م)،كانت البداية الجادة لانتقال الكتابة الأدبية الفرنكفونية في الجزائر إلى مصاف العالمية،لاسيما أن أهم تلك الكتابات في أساسها كانت تنشر في فرنسا على وجه الخصوص،ولم تكن تنشر في الجزائر،نتيجة الضعف الكبير للمقروئية.والتحول النوعي في طبيعة تلك الكتابات الجزائرية،هو تفسير واضح لبداية تشكل "الأنتلجنسيا" الثقافية في الجزائرية،وكذا بداية تشكل الوعي،بقيمة وأهمية الظروف التاريخية الجديدة،التي كان يمر بها العالم والجزائر معا.

إن التحول الجدلي الجديد في مسار الكتابة الأدبية الفرنكفونية في الجزائر،يأخذ تفسيرات جديدة،ذات صلة موضوعية بأنماط التحولات الاقتصادية والطبقية القائمة.حيث سجلت تلك السنة بداية فعلية لانهيار التفكير الأرستقراطي الكلاسيكي،وتحوله نحو الطبقات البسيطة والكادحة من أبناء المجتمع الجزائري.ومع أنه لم تكن وقتها طبقة "بروليتارية"(عمالية) في الجزائر بصريح العبارة،لكن كانت مظاهر الفقر والقهر الاجتماعيين حاضرة بقوة،وذات عمق تاريخي جوهري.وهذا يعني أن التحولات التاريخية أعطت للكتابة الروائية في الجزائر،تطورا جديدا يحمل منظورا جماليا،اختص بتأسيس رؤية فنية،ذات انتماء طبيعي لعامة أبناء المجتمع البسطاء.

والرواية الجزائرية بمعناها الواقعي،اختصت برصد جملة التحولات التاريخية،التي صنعتها الانتماءات الطبقية الجديدة،بهدف إقامة العلاقة الانعكاسية بين الفن والواقع؛من باب كون التحولات النمطية الحاصلة في حركية التاريخ،هي النتاج الطبيعي لمختلف التطورات القائمة،والتي أدت إلى تغيرات جديدة في نسيج البنية الاجتماعية في الجزائر.

وخلال فترة الخمسينات من القرن الماضي،ظهرت أعمال روائية جديدة،تعد من أهم ما أنتجته الكتابة الفرنكفونية في الجزائر.وهي أعمال أدبية سارت تقريبا ضمن الاتجاه الواقعي ذاته،الذي سارت

عليه أعمال الكاتب محمد ديب بداية..فظهرت رواية"نوم العادل" للكاتب"مولود معمري"(1955م)،ورواية"نجمة"لـ"كاتب ياسين"(1956م).ويلاحظ أن رواية نوم العادل كشفت عن حالة التخلف والفقر والاستغلال،والحرمان التي كانت تعاني منها قرى منطقة القبائل الجزائرية.والتي كانت تعيش ضمن محيط مغلق ومعزول في قمم الجبال،حيث التقاليد المتحكمة في حياة الناس،إضافة إلى وطأة المستعمر واستغلاله لحالة الجهل والتخلف،والخلافات التي تظهر بين الفينة والأخرى بين الناس بما يخدم مصالحه الكولونيالية،ويضمن استمرار بقائه،واستغلاله للثروة والإنسان.في حين قدمت رواية نجمة صورة عن البطالة والفقر المدقع الذي كان يعيشه الجزائريون في المدن.واستغلال الطبقة العاملة في ورشات المعمرين الأجانب،وضياعهم الزراعية التي تقع على أطراف تلك المدن.الشئ الذي يضاعف الإحساس بالاغتراب والظلم،والحيف الاجتماعي لدى أولئك العمال.ويدفع بالبعض للتمرد،وحتى لارتكاب جرائم قتل.

ولم تهمل الرواية الحديث عن بعض أهم الوقائع التاريخية التي عرفتها الجزائر،كأحداث الثامن من شهر ماي،ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين(1945/05/08م)،التي وقعت في مدن جزائرية وهي :"سطيف"،"قالمة"،و"خراطة"،التي كان ضحاياها بعشرات الآلاف من الجزائريين،وتصوير الوقائع بتلك القسوة والوحشية في الرواية.فكانت هذه الأعمال بمثابة المؤشر الذي أنذر ببداية تحول عميق،نتيجة ما آلت إليه أوضاع الجزائريين من تدهور وفساد كبيرين،بسبب ممارسات الإدارة الاستعمارية.ومعلوم جدا أن التمايز الطبقي الذي أنتجته تلك الممارسات،من الواضح جدا أن يؤدي إلى تحولات عميقة في مسار الحركة التاريخية للمجتمع الجزائري،بشكل يتيح دورا جديدا في مسار التاريخ،ينتج لحظة حاسمة في التحول المنشود.وهذا ما كان نتاجه فيما بعد اندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر سنة ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين(01/نوفمبر/1954م)،وهي الثورة التي غيرت مسار التاريخ والحياة معا.

إن الكتابة الفرنكفونية في الجزائر،وهي تعرف مسارات جديدة في مطلع الخمسينات من القرن الماضي،سعت لإيجاد أرضية ثقافية مكنتها من الاستجابة للتحولات التاريخية الجديدة.وإن كانت

المقروئية في الجزائر وقتها بدت ضعيفة إلى حد كبير،نتيجة ضعف مستوى التعليم في الجزائر،فالنخبة الثقافية الجزائرية آنذاك،أنتجت وعيا تاريخيا ذو علاقة مباشرة،مع طبيعة التحولات الاجتماعية والطبقية،بشكل سمح بإبراز المزيد من التحولات في مسار حركية التاريخ.

وهذا ما أكد فيما بعد ظهور المزيد من الأعمال الروائية ،للمؤلفين المذكورين،وكذا لمؤلفين آخرين تعززت بأعمالهم النزعة الاحتجاجية التي عرفت بها الكتابة الفرنكفونية خلال مطلع الخمسينات من القرن الماضي.وهذا وجه إثبات المسار الثوري والنزعة النضالية في أعمال كاتب ياسين اللاحقة،و"آسيا جبار"،و"مالك حداد"،في توافق جديد مع الأحداث التاريخية،التي تطورت مع منتصف الخمسينات.

مثل اندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر سنة ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين(1954م)،حدثا تاريخيا مميزا،جسد انعكاسا مباشرا على التحولات التاريخية الجديدة في المجتمع الجزائري.ولم تكن الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي بمنأى عن تلك التغيرات التاريخية التي بدأت تعرف منظورا جديدا لاسيما على مستوى الوعي.وكانت رواية "الانطباع الأخير"(1958م) للكاتب مالك حداد،أولى الروايات التي صورت وقائع الثورة التحريرية.ثم رواية"صيف إفريقي" للكاتب محمد ديب،من أهم الكتابات الأدبية باللغة الفرنسية،التي قدمت أنموذجا حيا من نماذج المقاومة الشعبية الجزائرية،ضد الاستعمار الفرنسي.حيث كان أبطال الرواية من عامة أبناء الشعب الجزائري البسطاء،من فلاحين في الأرياف وعمال في المدن،ومثقفون وأميون.وفي الوقت نفسه صورت الرواية مظاهر العنف والإبادة التي كانت تقوم بهما السلطات الاستعمارية ضد أبناء الشعب الجزائري،من قصف للقرى والأرياف وتشريد الساكنة.وقمع ومصادرة للحريات في المدن.

وعاد مجددا الكاتب محمد ديب لتصوير وقائع ثورة التحرير،في روايته اللاحقة"من يذكر البحر"(1962م)،بطريقة رمزية وتكثيف شديد للأحداث،ليعبر المنظور السردي عن حيثيات التوتر والرعب،التي سادت المدن الجزائرية،وأجواء الدمار والخراب التي عرفتها القرى والأرياف والمداشر خلال سنوات ثورة التحرير.

رسمت أعمال الكاتب محمد ديب تطورات واقعية عرفتها الحياة الاجتماعية والسياسية في الجزائر،خلال مرحلة تاريخية كانت غاية في الحساسية في حياة الشعب الجزائري.وقد عمدت الأعمال المذكورة لإبراز العلاقة الجدلية بين المنظومة الثقافية في الجزائر،ومجمل التطورات التاريخية الجديدة خلال مرحلة الخمسينات التي شهدت اندلاع الثورة التحريرية.

يمكن الفهم أن التطورات الجديدة التي عرفتها الكتابة الفرنكفوينة في الجزائر،خلال فترة الخمسينات من القرن الماضي،وقبل ذلك خلال فترة الأربعينات منه،جسدت منظورا نوعيا لتطور الوعي لدى النخبة الثقافية الجزائرية،بشكل سمح بفهم طبيعة التحولات الجدلية الجديدة.والنمط الطبقي الذي ساد المجتمع الجزائري خلال المرحلة الاستعمارية،هو نتاج التحولات التاريخية التي تحددت بداياتها الأولى منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر،عند بداية احتلال الجزائر.حيث بقي النمط الطبقي يعرف المزيد من التطورات التي كرست فوارق حقيقية في البنية الاجتماعية على امتداد عقود من الزمن،الشئ الذي مكن من إنتاج وعي تاريخي جديد،يؤمن بالتحول الإيجابي.

وموضوعات الصراعات المستمرة،جسدتها أعمال مالك حداد،في روايته"التلميذ والدرس"(1960م)،ثم في روايته اللاحقة"رصيف الأزهار لا يجيب"(1961م)،ولكن برؤية اختلفت نوعا ما عن رؤية محمد ديب.حيث ركز الكاتب كثيرا على أجواء القلق والتوتر،التي ميزت المجتمع الجزائري آنذاك،أكثر من تركيزه على تطور الوقائع والأحداث على مستوى النسيج السردي.ويجعل في الآن ذاته شخصيات روايته تعيش أجواء ذلك القلق والتوتر،وتعاني آثار الحرب والمواجهة.وهذا ما بدا من شخصية "خالد" في رواية رصيف الأزهار لا يجيب« يعاني الحرب،كما يعاني صداعا في الجمجمة».وكذلك ما تقوله"فضيلة" في رواية التلميذ والدرس:«أنا شقية..».ثم تعليق الدكتور"قادر" على قولها:«كنت أنتظر هذه الكلمة،لأنها وحدها تلخص تاريخ وطن».ولا يتوقف الأمر عند حدود اعتبار تعليق الدكتور "قادر"مجرد تعليق،إنما هو رؤية تعبر عن وعي تاريخي،صنعته مختلف التحولات النمطية التي كانت نتاج الصراع والتحول الطبقيين.

فالبعد الواقعي لرواية التلميذ والدرس،يختص ببلورة حالة الوعي الجديدة،التي صارت تميز الإنسان الجزائري،خلال مرحلة متقدمة من مراحل التاريخ الوطني.والتي هي في الأصل دلالة على مجمل عوامل التناقض التي صارت تعرفها البنية التركيبية للمجتمع،والتي كانت مزيجا بين الجزائريين والأجانب المعمرين.ووجه التناقض في جوهره،هو تجسيد لنمط الصراع الذي كان نتيجة التوزيع غير العادل للثروة.

واصلت الكتابة الفرنكفونية مسيرتها الفنية في الجزائر،بعد الاستقلال إلى غاية نهاية الستينات من القرن الماضي.ونتيجة التأثر العميق بأجواء الحرب ووقائع الثورة التحريرية،سارت تلك الأعمال الروائية التي ظهرت وقتها،ضمن مسار فني جسد علاقات الصراع بين الشعب الجزائري والمستعمر الفرنسي.وهذا ما جسدته أكثر رواية"أطفال العالم الجديد" للكاتبة آسيا جبار(1962م)،ورواية "الأفيون والعصا" للكاتب"مولود معمري"(1965م)،ورواية"أصابع النهار" للكاتب"حسين بوزاهر"(1967م)،ورواية"أسلاك الحياة الشائكة"للكاتب"صالح فلاح"(1969م)[1].

الواضح أن هذه الأعمال الروائية رغم تميزها فنيا،لأنها جاءت في فترة ولج فيها الأدب الجزائري الحديث بوابة العالمية،عبرت عن منظور واقعي تلائم إلى حد بعيد مع النمط الحياتي للشعب الجزائري. وإ كان تجسيد الصراع بشكل واضح في تلك الأعمال الفنية،قد أعطى المتن السردي الجزائري الحديث،منظورا مميزا؛فما يمكن فهمه هو أن طبيعة الانتقال التاريخي من مرحلة إلى مرحلة أخرى،هي نتاج طبيعي لعلاقات الصراع المستمرة،التي غالبا ما تصنعها الفوارق الطبقية،والأنماط المعيشية السائدة بين الأفراد والجماعات.

لقد حدد المنظور الواقعي في الرواية الجزائرية الحديثة،خاصية حداثة الكتابة الجديدة التي هي صورة واضحة،للتفاعل بين الأدب الجزائري الحديث،ومختلف المدارس الفنية والأدبية العالمية.والرؤية الواقعية جعلت من الكتابة الفرنكفوينة في الجزائر،خاصية أدبية وإبداعية مميزة،أملتها أنماط التحولات الجديدة،التي صنعتها التحولات التاريخية المستمرة.

---

[1] بالإضافة إلى كتابات محمد الشريف ساحلي عن الأمير عبد القادر الجزائري،وعن تشويه الاستعمار الفرنسي للتاريخ الجزائري.وكذا كتابات مصطفى الأشرف عن الأمة والمجتمع.

والمغزى الجدلي لتلك الأعمال،مثل خصوصية التحول التاريخي وفق ما اقتضاه المنظور المتغير،المدرك لطبيعة الأحداث والوقائع التاريخية.والذي عبر بموضوعية عن طبيعة الوعي الفني،الذي يعد من صميم طبيعة النمط الاقتصادي الذي أنتجته المنظومة الكولونيالية المهيمنة.

واعتبار الرواية الجزائرية الحديثة نتاجا للمنظور المادي المتحول،هو تفسير موضوعي لتطور الرواية الجزائرية،وفق مقتضيات التطور الجدلي لحركية التاريخ،التي صنعتها مجمل التغيرات المستمرة.

المحاضرة الثالثة

الحركية الثقافية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى–الأنموذج والتطور–

ارتبطت الحركية الثقافية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى،بتطور الانشغالات والتساؤلات الاجتماعية،تبعا لطبيعة التطور الجدلي في مسار تاريخ الجزائر الحديث.حيث تطور ذلك إلى ما يشبه أزمة ضمير،لدى الكتاب الجزائريين الذين كتبوا في ذلك الوقت باللغة الفرنسية على وجه الخصوص،إذ بدأت تطرح مسألة إمكانية حصول الجزائريين على المواطنة الفرنسية،وتمتعهم بالحقوق ذاتها على وجه التقريب مع الفرنسيين.ومثل هذه الإجراءات كانت نتيجة سياسة الانفتاح التي انتهجتها فرنسا إزاء الجزائريين،عقب نهاية الحرب العالمية الأولى مباشرة،ضمن قوانين الرابع من شهر فيفري ألف وتسعمائة وتسعة عشر.

تبدو مسألة انفتاح المستعمر على الجزائريين من الناحية التاريخية طبيعية إلى حد ما،بحكم طول مدة تواجده في الجزائر.حيث تقل حدة العدوان إزاء الشعب المحتل ،بشكل يسمح بنوع من التعايش بغرض تحقيق المزيد من المصالح الاقتصادية،والامتيازات الطبقية؛هذا بالنظر إلى الإمكانات المادية الكبيرة والهامة التي كانت تتمتع بها الجزائر ولا تزال.فالتاريخ يعطي مبررات موضوعية لذلك الانفتاح،بحكم تطور العلاقات التاريخية بين الشعب الجزائري وفرنسا،والتي غالبا ما تحكمها مجمل التحولات الاقتصادية ذات العلاقة المباشرة مع التحولات الطبقية،ضمن النسيج الاجتماعي في الجزائر.وإلا فلماذا يكون هناك انفتاحا على شعب مستعمر،دون الرغبة في تحقيق المزيد من الامتيازات الاقتصادية والطبقية،التي تهدف أساسا إلى الاستغلال وزيادة الثروة؟..

إن مجمل تلك التحولات المادية التي أنتجت وضعا طبقيا خاصا في الجزائر،عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى،والتي أنتجت بدورها ضرورة انفتاح المستعمر على الشعب الجزائري،من خلال قوانين الرابع من شهر فيفري سنة ألف وتسعمائة وتسعة عشر،تحولت إلى تساؤلات ذهنية مطروحة على النخبة الثقافية من أبناء المجتمع الجزائري.إذ كيف يمكن للجزائري التمتع بالمواطنة الفرنسية في ظل الاحتلال،ويبقى محافظا على ثوابته ومقوماته الحضارية؟..وهو السؤال الذي طرح وبقي مطروحا في

عديد الروايات التي صدرت،ما بين سنتي ألف وتسعمائة وتسعة وعشرين،وألف وتسعمائة وثمانية وأربعين.

رغم قلة عدد هذه الروايات التي ظهرت نماذج منها،مثل رواية "مريم بين النخيل" ظهرت سنة ألف وتسعمائة وأربعة وثلاثين لـ"محمد ولد الشيخ".ورواية "بولنوار فتى جزائري" ظهرت سنة ألف وتسعمائة وواحد وأربعين لـ"رابح زناتي".ورواية "ليلى فتاة جزائرية" ظهرت سنة ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين لـ"جميلة دباش".تبقى رواية "شكري خوجة" "العلج أسير بلاد البربر"،أهم رواية سجلت على مستوى الحركية الثقافية في الجزائر آنذاك،والتي عالجت موضوع الهوية،مع أن هذه الرواية كانت الأسبق في الظهور من الروايات الأخرى السالفة الذكر.

وما يسجل لها من الناحية الفنية،أنها كانت متمكنة إلى حد ما من بعض خصائص الكتابة الروائية،مبتعدة بذلك عن المعالجة المباشرة للموضوع.إضافة إلى ذلك فقد استفادت من بعض وقائع تاريخ الجزائر،لاسيما تاريخ رياس البحر،عندما كانت للجزائر السيادة في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر.حيث حاول الكاتب إسقاط تلك الوقائع التاريخية بشكل فني مميز،على وقائع عشرينيات القرن الماضي في المجتمع الجزائري.

ومن الواضح جدا أن الحركية الثقافية في الجزائر،بعد الحرب العالمية الأولى،تأثرت ببعض الحركات والتشكيلات السياسية التي بدأت في الظهور خلال تلك الفترة التاريخية متأثرة بالتطورات الجديدة التي عرفها الوضع الدولي،بعد الحرب العالمية الأولى.ولعل السياسي "فرحات عباس" أول من فتح نقاشا ثقافيا يخص الشباب الجزائري على وجه الخصوص،عندما كرس استعمال صفة "الفتى الجزائري"في أدبيات الحركة الوطنية خلال فترة العشرينيات والثلاثينات من القرن الماضي،كدلالة على الجيل الشباني الجديد من المثقفين الجزائريين من خريجي المدرسة الفرنسية،وهذا في مختلف المقالات المتفرقة التي كان ينشرها في الصحف الصادرة داخل الجزائر،خلال سنتي ألف وتسعمائة واثنين وعشرين،وألف وتسعمائة وثلاثين ميلادي.ثم قام بعد ذلك بجمعها ونشرها في كتاب سنة ألف

وتسعمائة وواحد وثلاثين وسمه ب:"الفتي الجزائري".حيث ترددت كثيرا هذه التسمية بعد ذلك في عناوين روائية لكتاب جزائريين.

جسد كتاب "الفتى الجزائري" لفرحات عباس أرضية نقاش فعلية شغل روائيي تلك الفترة.كما مثل أطروحات فكرية هامة للروائيين الجزائريين خلال فترة الثلاثينات من القرن الماضي.وقد حمل الكتاب دفاعا حقيقيا عن المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق والواجبات،لاسيما فيما يتعلق بقانون التجنيد الإجباري،الذي كان تمييزيا إلى حد بعيد بين الجزائريين والفرنسيين من حيث المدة الزمنية،التي يستلزمها التجنيد.

ثم توسع النقاش بعد ذلك،ليعرض الكتاب القضايا الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها المجتمع الجزائري،لاسيما ظاهرة هجرة الفلاحين الجزائريين إلى فرنسا ليكونوا عمالا في المصانع هناك،فيعلل أسباب الظاهرة والدوافع والعراقيل التي تقف أمام هجرة الجزائريين إلى أوروبا.

كما ناقش الكتاب قضايا أخرى ذات أبعاد حضاربة وثقافية ودينية هامة،كظاهرة الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا،والتي تعتبرها المدرسة الفرنسية بمثابة الاحتلال الفعلي لشعوب إفريقيا الشمالية.حيث يدافع الأستاذ فرحات عباس عن القيمة التاريخية والحضارية لتلك الفتوحات،ويشيد بميزاتها الحضارية،من خلال المقارنة بينها وبين الاستعمار الروماني لشمال إفريقيا وما جلبه من دمار واستعباد لتلك الشعوب،وما قدمه الفتح الإسلامي لتلك الشعوب من قيم حضارية وأخلاقية،وتمدن.كما بين الكتاب المزايا الروحية للإسلام،وأشاد بأخلاق النبي "محمد"–صلى الله عليه وسلم–،وبنزاهته وعدله،ودلل على ذلك بشواهد ووقائع من حياته.

شكلت هذه الموضوعات محاور هامة،للخلفيات الفكرية لمعظم الروايات التي صدرت قبل سنة ألف وتسعمائة واثنين وخمسين ميلادي.حيث لوحظ أن روائيي تلك الفترة في الجزائر،دافعوا عن القيم الحضارية للإسلام،كما عملوا على التعريف به،وإظهار مبادئه السامية،وعظمة رسالته الإنسانية.لأنه في اعتقاد روائيي تلك الفترة أن الأوروبيين المعمرين في الجزائر،لا يعرفون الدين الإسلامي على حقيقته،فلو عرفوا حقيقته لغيروا آرائهم على الأقل إزائه.وهذا ما لوحظ على مستوى الخطاب الروائي

الذي ميز تلك الفترة التاريخية،من تداخل واضح بينه وبين الآيات القرآنية،والأحاديث النبوية الشريفة الواردة على مستواه.حيث حرص كثيرا الكتاب في تلك الفترة،على شرحها وتبيانها وتوضيح مقاصدها.

وربما الفهم المستهجن للدين الإسلامي من لدن الأوروبيين عاد،إلى بعض المعتقدات التي يعتقدون أن الدين الإسلامي يدعو إليها،كالإيمان السلبي بالقضاء والقدر.حيث فهم هؤلاء أن المسلمين الجزائريين،يسلمون بواقعهم على نمط سلبي،دون السعي لتغييره،أو العمل على الأقل من أجل تحسينه،مدعين بذلك أن هذا قدرهم.وكذلك التركيز على بعض مقتضيات الشريعة الإسلامية في بعض جزئياتها،كتلك الجزئية التي ترخص للجزائري المسلم الزواج بأكثر من امرأة.حيث أنه في اعتقادهم،هذه الجزئية تورث استعباد الرجل للمرأة وامتهانه لها.

والملاحظ أن ظاهرة الزواج المختلط كظاهرة اجتماعية شكلت في ذلك الوقت،بين الجزائريين والفرنسيين،طرحا هاما للغاية على مستوى الأعمال الروائية الصادرة آنذاك.حيث اعتقد البعض أن مسألة الزواج المختلط غير ممكنة بسبب المانع الديني بين الجزائريين والمعمرين.ومن منظور البعض الآخر إمكانية للتواصل والانفتاح على المجتمع الأوروبي،والتعايش معه.يبدو في هذه الحال أنموذج روائي هام عالج هذه المسألة،كرواية "العلج أسير بلاد البربر"للكاتب الجزائري"شكري خوجة".حيث اعتبرت الرواية ظاهرة الزواج المختلط،وسيلة غير مجدية للتعايش بين الطرفين،نتيجة الاختلاف العقيدي.ويبدو النقيض في رواية"مريم بين النخيل"للكاتب "محمد ولد الشيخ"،التي ترى أن الزواج المختلط،إمكانية هامة ومجدية للتقارب والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين،بغرض خلق انسجام نوعي في التركيبة الاجتماعية في الجزائر،وفي ظل الاستعمار الفرنسي.وإلى حد ما الرؤية ذاتها التي وجدت في رواية"بولنوار فتى جزائري"للكاتب "رابح زناتي"،ورواية"ليلى فتاة جزائرية"للكاتبة"جميلة دباش".لكن رغم حدود الاختلاف والمفارقات الواضحة في مناقشة الظاهرة،والبحث في ثناياها،يبقى هاجس فشل الزيجات المختلطة قائما،بسبب انعدام التقارب والانسجام.والذي يعود بدوره إلى التصورات المسبقة لكلا الطرفين عن بعضهما البعض،وعدم التنازل عن قيم كل منهما قيد أنملة،مما يؤدي إلى تشكيل

ضغط اجتماعي قوي،لا يتمكن أبطال الروايات من الصمود أمامه،فيكونون بذلك ضحايا المجتمع من كلتا الطائفتين.وهذا ما برز بوضح للشخصية الرئيسة في رواية"بولنوار فتى جزائري".

وضمن سياق الصراع الحضاري في الجزائر،أواخر فترة الثلاثينيات من القرن الماضي،وموقف الحركية الثقافية في الجزائر منه،تأتي رواية "ابن الفقير"للكاتب الجزائري"مولود فرعون"التي يعود تاريخ كتابتها إلى سنة ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين ميلادي،لتلتقي مع كتاب تلك المرحلة،لمعالجة منطلقات فكرية مشتركة،لاسيما فيما يتعلق بالإدماج والتعايش بين الأوروبيين و"الأهالي".وهي الفكرة التي كان قد تلقاها مولود فرعون،خلال دراسته في دار المعلمين ب"بوزريعة".

جاءت رواية ابن الفقير لتجسد منظورا حضاريا،يؤمن بإمكانية التعايش بين الجزائريين والأوروبيين،بحكم أن هذه الإمكانية تعطي الجزائريين فرصة الانفتاح على فرنسا وسائر البلدان الأوروبية،عن طريق الهجرة أو الدراسة.

ومع أن الرواية يغلب عليها الطابع السيري في مختلف فصولها وأجزائها،فقد كانت رواية محلية،اهتمت خصوصا بعادات وتقاليد المجتمع القبائلي في الجزائر،إلى جانب الاهتمام ببعض مقومات الهوية الوطنية،كوسيلة هامة للحفاظ على الأبعاد الحضارية للشخصية الجزائرية.

تقتضي الموضوعية الإقرار بأن الحركية الثقافية في الجزائر،خلال الفترة التي سبقت الخمسينات من القرن الماضي،جزءا هاما جدا من التحولات التاريخية والاجتماعية التي عرفتها الجزائر.هذه التحولات التي ينبغي أن تكون خاضعة وبصفة حتمية،لمجمل التطورات الاقتصادية التي تحمل القيمة النوعية لأي تحول يحدث على مستوى البنية الفكرية للأفراد والجماعات.فالأعمال الروائية مثلا التي ظهرت خلال تلك الفترة،هي التجلي الواضح لمجمل تلك التحولات المادية التي حدثت في البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري.

وفق هذا لن تكون الحركية الثقافية في الجزائر خلال فترة تاريخية محدودة،سوى أنموذجا نوعيا لطبيعة التحولات الجديدة،التي تحدث باستمرار ضمن التركيبة الاجتماعية والمادية للمجتمع،والتي تستند

أساسا لاعتبارات تاريخية تحتكم هي الأخرى لمنظومة الحياة الاقتصادية والتركيبة الطبقية التي صنعتها الفئة الكولونيالية في ذلك الوقت.

والرواية الجزائرية في تأسيساتها الأولى،حين تجسد عوامل الصراع الاجتماعي والحضاري في الجزائر،فهي بذلك تجل واضح لمختلف التناقضات الطبقية ذات الارتباط الموضوعي بطبيعة التحولات التاريخية التي تصنعها التطورات الاقتصادية المتجددة،والمحددة لأنماط الإنتاج وعلاقات التوزيع بين الأفراد.والتي هي بدورها النتاج التاريخي للوضع الكولونيالي الذي عرفته الجزائر خلال تلك الفترة التاريخية.

المحاضرة الرابعة

التعايش الثقافي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية–الاستمرارية والمفارقة–

عرف المجتمع الجزائري خلال الفترة الاستعمارية،تحولا واضحا من حيث التعايش مع المعمرين الفرنسيين.ومن الطبيعي جدا أن يكون هذا التعايش يطبعه الحذر والريبة إزاء الطرفين.فلا يمكن الفهم أن التعايش هنا،بمعنى الانسجام والتراضي بين الجزائريين والفرنسيين.السبب في ذلك يعود،إلى التواجد الأجنبي الذي حمل في طياته معالم حضارة غربية،ليست من صميم المعطى الحضاري الأصيل للمجتمع الجزائري،والقائم أساسا على عناصر هوية وطنية راسخة في القدم،هي:الإسلام،والعروبة والأمازيغية،والتاريخ المشترك.

لذلك مثلت هذه العناصر الحضارية جانبا جوهريا هاما للغاية،لتكوين شخصية الإنسان الجزائري،على امتداد قرون من الزمن،وفي علاقاته كذلك مع سائر بلدان المغرب والمشرق العربيين.

فالوجود الفرنسي في الجزائر،لم يمثل ذلك الجانب الإيجابي،والقادر على تغيير مسار التاريخ الوطني لصالح الجزائريين.فالتحولات الاقتصادية الجديدة التي عرفتها أوروبا خلال القرن الثامن عشر،ومطلع القرن التاسع عشر جعلت من المجتمع الأوروبي بشكل عام،يعرف تغيرات هامة في البنية الهيكلية للاقتصاد،مما أثر تأثيرا مباشرا على عملية التحول التاريخي في مسار المجتمع الأوروبي.

ولم يكن التفكير الأوروبي بمنأى عن تلك التحولات التاريخية الحاصلة،كون المجتمع الأوروبي اكتسب أنماطا جديدة من التفكير،هي النتاج الطبيعي لجملة التحولات الاقتصادية الجديدة الحاصلة.ويفهم من هذا الرأي أن الثورة الصناعية،وما أحدثته من تطور اقتصادي كبير في أوروبا،جعلت من المجتمع الأوروبي،يغير من طبيعة نمطه الفكري،نتيجة الظروف الاقتصادية الجديدة،التي أنتجت أساليب جديدة في علاقات الإنتاج وأنماط التوزيع.وحددت طرقا أخرى،في كسب المعاشات كان لها بالغ الأثر،في تغير النسق الفكري والثقافي في أوروبا.

وإذا كان المجتمع الفرنسي في ذلك الوقت،بدأ يعرف كسائر المجتمعات الأوروبية الأخرى،تحولات طبقية في صميم بنيته الاجتماعية،نتيجة التطورات الاقتصادية الجديدة،فما عرف عن المجتمع الجزائري

آنذاك،أنه كان ضمن الحكم العثماني،يتبع نظاما تحدد باسم الخلافة الإسلامية برعاية الأتراك العثمانيين.

وواضح جدا أن الدولة العثمانية في عصورها لم تقم على أسس علمية،كما فعلت أوروبا عندما أرادت الخروج من عصور الظلام،وتأسيس نهضة عالمية رائدة سادت العالم بعد ذلك.فكل ما كان التركيز عليه،هو القوة العسكرية،والقوة المالية التي هي أساسا عبارة عن جبايات وإتاوات من مختلف الأمصار التي كانت تحكمها.

الجزائر وقتها كانت تحكم بسلطة رياس البحر،لأنهم كانوا يوفرون شيئين اثنين هما:الحماية الأمنية والعسكرية في البحر الأبيض المتوسط.وأنهم كانوا مصدر ثراء الجزائر،نتيجة الإتاوات التي تدفع لفائدة الأسطول البحري الجزائري،مقابل حماية السفن العابرة في البحر من القرصنة الأوروبية والمالطية.

يبدأ التحول الجديد في المجتمع الجزائري خلال أواسط القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين،عند بداية ترسخ أقدام الاستعمار الفرنسي في الجزائر.وهي الفترة التي شهدت بداية مرحلة الوعي بأهمية وقيمة الاستقلال الوطني،نتيجة بداية ظهور الحركات الوطنية؛سواء كانت هذه الحركات أحزابا سياسية أو جمعيات ثقافية أو إصلاحية.والمجتمع الجزائري في تعايشه مع المجتمع الأوروبي وقتها،كان على درجة من الحذر،نتيجة الفوارق الحضارية القائمة بين الجزائريين والفرنسيين على وجه الخصوص.ولعل رفض الجزائريين مشاركة المستوطنين حياتهم الاجتماعية والثقافية والرياضية،وحتى الترفيهية كان بمثابة المقاومة الهادئة للوجود الأجنبي في الجزائر.مما يثبت أنه لم يكن يوجد أي تعايش حقيقي بين الجزائريين والمستوطنين خلال الفترة الاستعمارية.وهذا ما أكده "جاك بيرك"،وأكده كذلك أحد الباحثين الفرنسيين حين تحدث عن الهوة التي كانت تفصل الجزائريين عن الأوروبيين،حين قال:«لا يوجد بين فرنسا والجزائر سوى ألف كيلومتر من ماء البحر،ولكن يوجد بين أحياء الأوروبيين في المدينة،وأحياء "الأهالي"مسافة فلكية هي تلك التي صنعها الاستعمار».

تؤكد المقولة شيئا أساسيا هاما،هو علاقة اللاانسجام بين الجزائريين والمستوطنين أثناء فترة الاحتلال.وإذا كان الكثير يعتقد بأن تلك العلاقة هي نتاج الاحتلال بذاته،والذي غالبا ما يمثل

سيطرة أمة على أمة أخرى،ومصادرة جميع مقدراتها لصالحه،فإن الشئ الأساسي الذي ينبغي أن يدرك من خلال تلك العلاقة،هو وجود الصراع الطبقي الذي يؤكد ظاهرة التفاوت الاجتماعي ضمن المجتمع الجزائري.ومع أن الظاهرة هي من صنيع الاحتلال الفرنسي بشكل واضح،فالتطور التاريخي للظاهرة كان يحدد النمط الثقافي السائد في الجزائر آنذاك.ما يؤكد صعوبة التبادل الثقافي بين الطرفين،نتيجة العلاقة العدائية المستحكمة.كما يؤكد انعدام التلاقح الفكري أو التأثير الحضاري بين الجزائريين والفرنسيين.

وما هو معروف أن المحتل الفرنسي كان في الغالب الأعم ينظر إلى الثقافة الجزائرية نظرة دونية؛في الوقت ذاته كان الجزائريون لا يعبئون كثيرا بثقافة المحتل نتيجة الحذر والخيفة اللذان كانا يتوجسانها منه.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى،بدأ يحدث نوع من التقارب الحذر بين الثقافتين الجزائرية والفرنسية،وحتى بين الجزائريين والفرنسيين أنفسهم،وهذا بداعي الانفراج الدولي الذي أعقب الحرب،وذيوع مبادئ الرئيس الأمريكي"ويلسون" الأربعة عشر الشهيرة،والتي من أشهرها حق الشعوب في تقرير مصيرها.ومن جانب الحكومة الفرنسية،فقد اتخذت إجراءات سياسية وإدارية،خففت من حدة التوتر والصراع نوعا ما مع الجزائريين؛إذ تمثلت هذه الإجراءات في قوانين الرابع من شهر فيفري سنة ألف وتسعمائة وتسعة عشر ميلادي.حيث تم بموجب هذه القوانين إلغاء مواد قانون الأهالي العنصري"الأنديجانا"،الذي كان قد جسد من قبل إجراءات تمييزية واضحة أدت إلى المزيد من العداء بين الطرفين.وكانت الحكومة الفرنسية آنذاك تهدف من وراء سن تلك القوانين،رد الجميل للجزائريين الذين شاركون في الحرب العالمية الأولى ضد دول المحور.وكذلك لفتة اعتراف ومجاملة للعمال الجزائريين الذين كانوا في ذلك الوقت مقيمين على التراب الفرنسي،وضمنوا استمرار عمل المصانع تعويضا للعمال الفرنسيين الذين جندوا في الحرب.

وإن كانت لهذه الإجراءات بعض الآثار الإيجابية على الجزائريين في حياتهم الاجتماعية،كتمتعهم بحق تأسيس الجمعيات الثقافية والخيرية،وكذا تأسيس الأحزاب السياسية،وإصدار الصحف،والمشاركة في الانتخابات؛فالوقائع التاريخية تثبت نوعا من الانفراج الحاصل خلال تلك الفترة الزمنية؛في الوقت

نفسه تعكس النمط الجدلي المحدد لطبيعة الوعي الثقافي الذي كان نتاج التطور التاريخي والاجتماعي في الجزائر.

فأن يكون للفرد الجزائري الحقوق المذكورة آنفا،هذا يثبت بدايات فعلية لتطور الوعي السياسي والثقافي والنضج الفكري،الذي هو انعكاس طبيعي لمختلف التحولات الجدلية ذات الصلة المباشرة بأنماط الإنتاج وعلاقات التوزيع في المجتمع الجزائري.

ولكن لا يعني هذا أن البنية الاقتصادية تغيرت خلال ذلك الظرف التاريخي.فالواضح أنه خلال العشرينيات من القرن الماضي وكذا الثلاثنيات وصولا إلى الأربعينيات،البنية الاقتصادية كان يطبعها الإقطاع والاحتكار في الجزائر على وجه الخصوص.بمعنى أن علاقات الإنتاج وأنماط التوزيع في المجتمع،كانت على درجة من الاختلال،بحيث تثبت أن علاقات الصراع بين الجزائريين والمعمرين كانت قائمة بقوة،وأن التعايش كان صعبا وجوده.وهذا يعني كذلك أن أنماط اكتساب المعاشات في المجتمع،كانت هي الأخرى على درجة من الاختلال واللاتوازن.ومثل هذه المعطيات الاقتصادية كان لها بالغ الأثر على طبيعة الوعي الفكري في المجتمع.فنمط التفكير الذي ساد المجتمع الجزائري آنذاك،هو نتاج لتلك العوامل الاقتصادية السائدة،والتي حددت فيما بعد النظام الطبقي في المجتمع،وطبيعة التفكير.

إن المنظومة الأدبية في الجزائر التي كانت جزءا هاما من الحياة الثقافية،خلال تلك الحقبة التاريخية،تجل واضح لطبيعة البنية الطبقية للمجتمع التي كانت نتاج الصراع بينه وبين المعمرين الفرنسيين.وإذا كان لا بد من الحديث عن بعض أوجه الصراع في الجزائر وقتها،فعلي سبيل المثال حركة "الأمير خالد" التي دخلت انتخابات ألف وتسعمائة وتسعة عشر في الجزائر لم تنل المقاعد التي حازتها بالطرق الديمقراطية المعروفة.حيث قامت السلطات الاستعمارية وقتها بتزوير الانتخابات وحرمان حركة الأمير خالد من حقها الشرعي في تمثيل أبناء المجتمع الجزائر،في المجالس المحلية.وأثيرت القلاقل حول شخص الأمير خالد،وحرمت حركته من المشاركة في انتخابات ألف وتسعمائة واثنين وعشرين ميلادي؛إذ اتهم من لدن سلطات الاحتلال بالتآمر على أمن البلاد،لأنه قدم عريضة للرئيس

الأمريكي ويلسون سنة ألف وتسعمائة وتسعة عشر أثناء توقيع اتفاقيات مؤتمر الصلح بعد الحرب العالمية الأولى بمدينة"فرساي"الفرنسية،طلب منه تدخل القوى الكبرى لفرض استفتاء للشعب الجزائري على تقرير مصيره.

مثل هذه المواقف الوطنية التي هي نتاج التحولات الدولية الجديدة،منحت نوعا من الحركية الاجتماعية لتطور الصراع في الجزائر.والذي قام أساسا بسب ظاهرة الاستغلال التي كانت تمارسها السلطات الاستعمارية،وليس بعيدا أن يكون نمط الوعي لحركة الأمير خالد،نتاجا لتلك التطورات التاريخية ذات الصلة المباشرة بالتحولات الاقتصادية التي بدأت تتخذ أشكالات جديدة من التطور،وفق الأنساق الجديدة لعلاقات الإنتاج والتوزيع التي أقرها النظام العالمي الجديد في أوانه.

لذلك ففترة العشرينات من القرن الماضي،شهدت ظهور خمسة أعمال أدبية،كالمجموعة الشعرية لسالم القبي،والسيرة الذاتية للقايد بن شريف،إلى جانب رواية"زهراء امرأة المنجمي"لـ"عبد القادر حاج حمو"،التي صدرت سنة ألف وتسعمائة وخمسة وعشرين.ورواية"مأمون بدايات مثل أعلى"للكاتب"شكري خوجة"سنة ألف وتسعمائة وثمانية وعشرين.ثم رواية"العلج أسير بربروسيا"للكاتب شكري خوجة أيضا سنة ألف وتسعمائة وتسعة وعشرين.

هذا الأعمال الأدبية التي ظهرت خلال تلك الفترة التاريخية،عكست ضعف المستوى الثقافي في الجزائر،نتيجة غياب المقروئية،والسياسة التعليمية التمييزية التي مارستها السلطات الاستعمارية في ذلك الوقت تجاه "الأهالي".مما أكد انعدام كاد أن يكون كليا للإبداع خلال تلك السنوات.

والحديث عن التعايش الثقافي خلال الفترة الاستعمارية لاسيما في مطلع القرن الماضي،يصعب إثرائه أو مناقشته نتيجة سياسة التجهيل التي كانت متبعة آنذاك والتي غيبت الإبداع بشكل كبير.ونتيجة التحولات الاجتماعية والتاريخية التي لم تكن في صالح المجتمع الجزائري،بسبب علاقات الصراع التي كانت قائمة بين مختلف الأطراف الاجتماعية المشكلة للبنى الاجتماعية للمجتمع.وتلك الأعمال الأدبية في حقيقتها هي انعكاس صريح،للوعي الفكري والثقافي في علاقاته بتحولات البنى الطبقية ضمن النسيج الاجتماعي.ومع أن البعض منها عكس بعض القضايا والاهتمامات الاجتماعية التي

سادت المجتمع الجزائري آنذاك،فليس بعيدا أن يكون أولئك الكتاب أو الشعراء،نتاجا للمدرسة الفرنسية التي جعلت منهم أنموذجا لانتماء طبقي معين، يمجد الحضارة الفرنسية.

المحاضرة الخامسة

الحركية الثقافية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى–الحتميات التاريخية الجديدة–

ارتبطت الحركية الثقافية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى،بتطور الانشغالات والتساؤلات الاجتماعية،تبعا لطبيعة التطور الجدلي في مسار تاريخ الجزائر الحديث.حيث تطور ذلك إلى ما يشبه أزمة ضمير،لدى الكتاب الجزائريين الذين كتبوا في ذلك الوقت باللغة الفرنسية على وجه الخصوص،إذ بدأت تطرح مسألة إمكانية حصول الجزائريين على المواطنة الفرنسية،وتمتعهم بالحقوق ذاتها على وجه

التقريب مع الفرنسيين.ومثل هذه الإجراءات كانت نتيجة سياسة الانفتاح التي انتهجتها فرنسا إزاء الجزائريين،عقب نهاية الحرب العالمية الأولى مباشرة،ضمن قوانين الرابع من شهر فيفري ألف وتسعمائة وتسعة عشر.

تبدو مسألة انفتاح المستعمر على الجزائريين من الناحية التاريخية طبيعية إلى حد ما،بحكم طول مدة تواجده في الجزائر.حيث تقل حدة العدوان إزاء الشعب المحتل ،بشكل يسمح بنوع من التعايش بغرض تحقيق المزيد من المصالح الاقتصادية،والامتيازات الطبقية؛هذا بالنظر إلى الإمكانات المادية الكبيرة والهامة التي كانت تتمتع بها الجزائر ولا تزال.فالتاريخ يعطي مبررات موضوعية لذلك الانفتاح،بحكم تطور العلاقات التاريخية بين الشعب الجزائري وفرنسا،والتي غالبا ما تحكمها مجمل التحولات الاقتصادية ذات العلاقة المباشرة مع التحولات الطبقية،ضمن النسيج الاجتماعي في الجزائر.وإلا فلماذا يكون هناك انفتاحا على شعب مستعمر،دون الرغبة في تحقيق المزيد من الامتيازات الاقتصادية والطبقية،التي تهدف أساسا إلى الاستغلال وزيادة الثروة؟..

إن مجمل تلك التحولات المادية التي أنتجت وضعا طبقيا خاصا في الجزائر،عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى،والتي أنتجت بدورها ضرورة انفتاح المستعمر على الشعب الجزائري،من خلال قوانين الرابع من شهر فيفري سنة ألف وتسعمائة وتسعة عشر،تحولت إلى تساؤلات ذهنية مطروحة على النخبة الثقافية من أبناء المجتمع الجزائري.إذ كيف يمكن للجزائري التمتع بالمواطنة الفرنسية في ظل الاحتلال،ويبقى محافظا على ثوابته ومقوماته الحضارية؟..وهو السؤال الذي طرح وبقي مطروحا في عديد الروايات التي صدرت،ما بين سنتي ألف وتسعمائة وتسعة وعشرين،وألف وتسعمائة وثمانية وأربعين.

رغم قلة عدد هذه الروايات التي ظهرت نماذج منها،مثل رواية "مريم بين النخيل" ظهرت سنة ألف وتسعمائة وأربعة وثلاثين لـ"محمد ولد الشيخ".ورواية "بولنوار فتى جزائري" ظهرت سنة ألف وتسعمائة وواحد وأربعين لـ"رابح زناتي".ورواية "ليلى فتاة جزائرية" ظهرت سنة ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين لـ"جميلة دباش".تبقى رواية "شكري خوجة" "العلج أسير بلاد البربر"،أهم رواية سجلت على مستوى

الحركية الثقافية في الجزائر آنذاك،والتي عالجت موضوع الهوية،مع أن هذه الرواية كانت الأسبق في الظهور من الروايات الأخرى السالفة الذكر.

وما يسجل لها من الناحية الفنية،أنها كانت متمكنة إلى حد ما من بعض خصائص الكتابة الروائية،مبتعدة بذلك عن المعالجة المباشرة للموضوع.إضافة إلى ذلك فقد استفادت من بعض وقائع تاريخ الجزائر،لاسيما تاريخ رياس البحر،عندما كانت للجزائر السيادة في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر.حيث حاول الكاتب إسقاط تلك الوقائع التاريخية بشكل فني مميز،على وقائع عشرينيات القرن الماضي في المجتمع الجزائري.

ومن الواضح جدا أن الحركية الثقافية في الجزائر،بعد الحرب العالمية الأولى،تأثرت ببعض الحركات والتشكيلات السياسية التي بدأت في الظهور خلال تلك الفترة التاريخية متأثرة بالتطورات الجديدة التي عرفها الوضع الدولي،بعد الحرب العالمية الأولى.ولعل السياسي "فرحات عباس" أول من فتح نقاشا ثقافيا يخص الشباب الجزائري على وجه الخصوص،عندما كرس استعمال صفة "الفتى الجزائري"في أدبيات الحركة الوطنية خلال فترة العشرينيات والثلاثينات من القرن الماضي،كدلالة على الجيل الشباني الجديد من المثقفين الجزائريين من خريجي المدرسة الفرنسية،وهذا في مختلف المقالات المتفرقة التي كان ينشرها في الصحف الصادرة داخل الجزائر،خلال سنتي ألف وتسعمائة واثنين وعشرين،وألف وتسعمائة وثلاثين ميلادي.ثم قام بعد ذلك بجمعها ونشرها في كتاب سنة ألف وتسعمائة وواحد وثلاثين وسمه ب:"الفتي الجزائري".حيث ترددت كثيرا هذه التسمية بعد ذلك في عناوين روائية لكتاب جزائريين.

جسد كتاب "الفتى الجزائري" لفرحات عباس أرضية نقاش فعلية شغل روائيي تلك الفترة.كما مثل أطروحات فكرية هامة للروائيين الجزائريين خلال فترة الثلاثينات من القرن الماضي.وقد حمل الكتاب دفاعا حقيقيا عن المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق والواجبات،لاسيما فيما يتعلق بقانون التجنيد الإجباري،الذي كان تمييزيا إلى حد بعيد بين الجزائريين والفرنسيين من حيث المدة الزمنية،التي يستلزمها التجنيد.

ثم توسع النقاش بعد ذلك،ليعرض الكتاب القضايا الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها المجتمع الجزائري،لاسيما ظاهرة هجرة الفلاحين الجزائريين إلى فرنسا ليكونوا عمالا في المصانع هناك،فيعلل أسباب الظاهرة والدوافع والعراقيل التي تقف أمام هجرة الجزائريين إلى أوروبا.

كما ناقش الكتاب قضايا أخرى ذات أبعاد حضاربة وثقافية ودينية هامة،كظاهرة الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا،والتي تعتبرها المدرسة الفرنسية بمثابة الاحتلال الفعلي لشعوب إفريقيا الشمالية.حيث يدافع الأستاذ فرحات عباس عن القيمة التاريخية والحضارية لتلك الفتوحات،ويشيد بميزاتها الحضارية،من خلال المقارنة بينها وبين الاستعمار الروماني لشمال إفريقيا وما جلبه من دمار واستعباد لتلك الشعوب،وما قدمه الفتح الإسلامي لتلك الشعوب من قيم حضارية وأخلاقية،وتمدن.كما بين الكتاب المزايا الروحية للإسلام،وأشاد بأخلاق النبي "محمد"–صلى الله عليه وسلم–،وبنزاهته وعدله،ودلل على ذلك بشواهد ووقائع من حياته.

شكلت هذه الموضوعات محاور هامة،للخلفيات الفكرية لمعظم الروايات التي صدرت قبل سنة ألف وتسعمائة واثنين وخمسين ميلادي.حيث لوحظ أن روائيي تلك الفترة في الجزائر،دافعوا عن القيم الحضارية للإسلام،كما عملوا على التعريف به،وإظهار مبادئه السامية،وعظمة رسالته الإنسانية.لأنه في اعتقاد روائيي تلك الفترة أن الأوروبيين المعمرين في الجزائر،لا يعرفون الدين الإسلامي على حقيقته،فلو عرفوا حقيقته لغيروا آرائهم على الأقل إزائه.وهذا ما لوحظ على مستوى الخطاب الروائي الذي ميز تلك الفترة التاريخية،من تداخل واضح بينه وبين الآيات القرآنية،والأحاديث النبوية الشريفة الواردة على مستواه.حيث حرص كثيرا الكتاب في تلك الفترة،على شرحها وتبيانها وتوضيح مقاصدها.

وربما الفهم المستهجن للدين الإسلامي من لدن الأوروبيين عاد،إلى بعض المعتقدات التي يعتقدون أن الدين الإسلامي يدعو إليها،كالإيمان السلبي بالقضاء والقدر.حيث فهم هؤلاء أن المسلمين الجزائريين،يسلمون بواقعهم على نمط سلبي،دون السعي لتغييره،أو العمل على الأقل من أجل تحسينه،مدعين بذلك أن هذا قدرهم.وكذلك التركيز على بعض مقتضيات الشريعة الإسلامية في

بعض جزئياتها،كتلك الجزئية التي ترخص للجزائري المسلم الزواج بأكثر من امرأة.حيث أنه في اعتقادهم،هذه الجزئية تورث استعباد الرجل للمرأة وامتهانه لها.

والملاحظ أن ظاهرة الزواج المختلط كظاهرة اجتماعية شكلت في ذلك الوقت،بين الجزائريين والفرنسيين،طرحا هاما للغاية على مستوى الأعمال الروائية الصادرة آنذاك.حيث اعتقد البعض أن مسألة الزواج المختلط غير ممكنة بسبب المانع الديني بين الجزائريين والمعمرين.ومن منظور البعض الآخر إمكانية للتواصل والانفتاح على المجتمع الأوروبي،والتعايش معه.يبدو في هذه الحال أنموذج روائي هام عالج هذه المسألة،كرواية "العلج أسير بلاد البربر"للكاتب الجزائري"شكري خوجة".حيث اعتبرت الرواية ظاهرة الزواج المختلط،وسيلة غير مجدية للتعايش بين الطرفين،نتيجة الاختلاف العقيدي.ويبدو النقيض في رواية"مريم بين النخيل"للكاتب "محمد ولد الشيخ"،التي ترى أن الزواج المختلط،إمكانية هامة ومجدية للتقارب والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين،بغرض خلق انسجام نوعي في التركيبة الاجتماعية في الجزائر،وفي ظل الاستعمار الفرنسي.وإلى حد ما الرؤية ذاتها التي وجدت في رواية"بولنوار فتى جزائري"للكاتب "رابح زناتي"،ورواية"ليلى فتاة جزائرية"للكاتبة"جميلة دباش".لكن رغم حدود الاختلاف والمفارقات الواضحة في مناقشة الظاهرة،والبحث في ثناياها،يبقى هاجس فشل الزيجات المختلطة قائما،بسبب انعدام التقارب والانسجام.والذي يعود بدوره إلى التصورات المسبقة لكلا الطرفين عن بعضهما البعض،وعدم التنازل عن قيم كل منهما قيد أنملة،مما يؤدي إلى تشكيل ضغط اجتماعي قوي،لا يتمكن أبطال الروايات من الصمود أمامه،فيكونون بذلك ضحايا المجتمع من كلتا الطائفتين.وهذا ما برز بوضح للشخصية الرئيسة في رواية"بولنوار فتى جزائري".

وضمن سياق الصراع الحضاري في الجزائر،أواخر فترة الثلاثينيات من القرن الماضي،وموقف الحركية الثقافية في الجزائر منه،تأتي رواية "ابن الفقير"للكاتب الجزائري"مولود فرعون"التي يعود تاريخ كتابتها إلى سنة ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين ميلادي،لتلتقي مع كتاب تلك المرحلة،لمعالجة منطلقات فكرية مشتركة،لاسيما فيما يتعلق بالإدماج والتعايش بين الأوروبيين و"الأهالي".وهي الفكرة التي كان قد تلقاها مولود فرعون،خلال دراسته في دار المعلمين ب"بوزريعة".

جاءت رواية ابن الفقير لتجسد منظورا حضاريا،يؤمن بإمكانية التعايش بين الجزائريين والأوروبيين،بحكم أن هذه الإمكانية تعطي الجزائريين فرصة الانفتاح على فرنسا وسائر البلدان الأوروبية،عن طريق الهجرة أو الدراسة.

ومع أن الرواية يغلب عليها الطابع السيري في مختلف فصولها وأجزائها،فقد كانت رواية محلية،اهتمت خصوصا بعادات وتقاليد المجتمع القبائلي في الجزائر،إلى جانب الاهتمام ببعض مقومات الهوية الوطنية،كوسيلة هامة للحفاظ على الأبعاد الحضارية للشخصية الجزائرية.

تقتضي الموضوعية الإقرار بأن الحركية الثقافية في الجزائر،خلال الفترة التي سبقت الخمسينات من القرن الماضي،جزءا هاما جدا من التحولات التاريخية والاجتماعية التي عرفتها الجزائر.هذه التحولات التي ينبغي أن تكون خاضعة وبصفة حتمية،لمجمل التطورات الاقتصادية التي تحمل القيمة النوعية لأي تحول يحدث على مستوى البنية الفكرية للأفراد والجماعات.فالأعمال الروائية مثلا التي ظهرت خلال تلك الفترة،هي التجلي الواضح لمجمل تلك التحولات المادية التي حدثت في البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري.

وفق هذا لن تكون الحركية الثقافية في الجزائر خلال فترة تاريخية محدودة،سوى أنموذجا نوعيا لطبيعة التحولات الجديدة،التي تحدث باستمرار ضمن التركيبة الاجتماعية والمادية للمجتمع،والتي تستند أساسا لاعتبارات تاريخية تحتكم هي الأخرى لمنظومة الحياة الاقتصادية والتركيبة الطبقية التي صنعتها الفئة الكولونيالية في ذلك الوقت.

والرواية الجزائرية في تأسيساتها الأولى،حين تجسد عوامل الصراع الاجتماعي والحضاري في الجزائر،فهي بذلك تجل واضح لمختلف التناقضات الطبقية ذات الارتباط الموضوعي بطبيعة التحولات التاريخية التي تصنعها التطورات الاقتصادية المتجددة،والمحددة لأنماط الإنتاج وعلاقات التوزيع بين الأفراد.والتي هي بدورها النتاج التاريخي للوضع الكولونيالي الذي عرفته الجزائر خلال تلك الفترة التاريخية.

المحاضرة السادسة

التنوع الأدبي الفرنكفوني في الجزائر–الملامح التاريخية والتطورات الجديدة–

في الحديث عن ظاهرة التنوع الأدبي الفرنكفوني في الجزائر،يمكن الاحتكام للمنظور الجدلي الذي فرض حتمية التطور والتغيير في الأجناس الأدبية التي عرفتها الساحة الثقافية الجزائرية،خلال حقب تاريخية سابقة ولا تزال تعرفها إلى يومنا هذا.

والمنظور الجدلي يعطي رؤية موضوعية في التفسير والتحليل والتأريخ للظاهرة الأدبية،في الآن نفسه.من باب كون التطور والتحول مصير أي كائن حي في الوجود،والظاهرة الأدبية لا تستثنى من آلية التطور

والتحول،بحكم أنها من إنتاج كائن حي يخضع هو الآخر للتحولات الجدلية نفسها التي تخضع لها أية ظاهرة كانت في هذا الوجود.

سارت الظاهرة الأدبية في الجزائر،تبعا للتطورات التاريخية التي عرفها المجتمع الجزائري،منذ أن عرفت الساحة الثقافية الجزائرية،تطورات جديدة جعلتها أكثر فاعلية،وأكثر استيعابا لأجناس أدبية جديدة. فمنذ الخمسينات من القرن الماضي،عرفت الجزائر تحولا تاريخيا هاما على مستوى وعي الأفراد والجماعات،كانت نتيجته تحول النضال السياسي إلى كفاح مسلح،جسدته ثورة الفاتح من شهر نوفمبر سنة ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين(1954/11/01م).وفي علاقة هذا التحول التاريخي بالإنتاج الأدبي،لوحظ أن المسرحيات الجزائرية التي ظهرت خلال الثورة التحريرية،سارت ضمن ذلك التوجه الثوري الذي أراده المجتمع الجزائري وقتها.وظهرت نصوص مسرحية هامة،مثل مسرحية"الجثة المطوقة"لكاتب ياسين،ومسرحية"الأجداد يزدادون ضراوة"لكاتب ياسين أيضا.حيث عرضت هذه المسرحية على خشبة المسرح في مدينة"بروكسل"خلال الثورة التحريرية،ثم أعيد نشرها مع نصوص للكاتب نفسه ضمن كتاب جامع بعنوان"دائرة الانتقام" سنة ألف وتسعمائة وتسعة وخمسين(1959م).

ويسجل التاريخ الأدبي في الجزائر،وجود أعمال مسرحية أخرى لقيت اهتماما أقل من الأعمال التي سبقتها،مثل مسرحية"أصوات في القصبة"(1960م) لحسين بوزاهر.ومسرحية"الميلاد"و مسرحية"الزيتونة"(1962م) لمحمد بودية،ومسرحية"إحمرار الفجر"(1969م) لآسيا جبار.وكذا مسرحية"الرجل ذو النعل المطاطي"(1969م) لكاتب ياسين،والتي عرضت على خشبة المسرح الوطني الجزائري سنة ألف وتسعمائة وتسعة وستين(1969م)،باللغة الفرنسية،ثم باللهجة العامية الجزائرية قبل نشرها[1].

في مسرحية الرجل ذو النعل المطاطي،اندماج كبير مع وقائع الثورة التحريرية.مع أن طبيعة المضمون لم تكن خاصة بثورة التحرير الجزائرية بالذات،لكن الفعل الثوري المجسد لحركية التغيير،يأخذ مسارات

[1] Kateb Yacine :un homme,une œuvre,un pays,entretien réalisé par hafid gafaiti.coll.voix multiples.laphomic.alger 1986,p :10

هامة على امتداد المتن المسرحي،لأن النص يأخذ أنموذج الثورة الفيتنامية التي اندلعت ضد الاستعمار الفرنسي بداية كموضوع له.وما تجدر الإشارة إليه هو أن معظم هذه المسرحيات التي تمت الإشارة إليها،كانت قد عرضت من قبل في أوروبا،وعلى جمهور غير الجمهور الجزائري.لكن يبقى التقليد القائم بين هذه الأعمال المسرحية،هو آلية التواصل مع الجمهور،وهي اللهجة العامية الجزائرية،حيث بدا ذلك في العروض التي قدمتها الفرقة المسرحية لـ"جبهة التحرير الوطني"أيام الثورة التحريرية.لذلك لم تكن النصوص المسرحية التي كتبت على وجه الخصوص،خلال الخمسينات من القرن الماضي،تلقى الاهتمام الكبير،بحكم اللغة الفرنسية التي كتبت بها.كما أنها نصوص وجهت أصلا للقراءة لا للتمثيل؛إضافة إلى ذلك فمحدودية المقروئية في الجزائر آنذاك،جعلت من القراءة الأدبية شيئا ليس ذا بال[1].وربما مثل هذه العوامل وغيرها،جعلت من كاتب ياسين،يتخلى عن كتابة نصوصه المسرحية باللغة الفرنسية،ليقدم عروضه باللهجة العامية الجزائرية،كي تتمكن نصوصه من التواصل مع عامة الجزائريين.

وهذا ما وجد لدى الكتاب المسرحيين في الجزائر،الذين جاءوا بعد ذلك.حيث اتخذوا من اللهجة العامية الجزائرية إمكانية لكتابة نصوصهم المسرحية،ووسيلة للتواصل مع الجمهور.يقف في مقدمتهم الكاتب سليمان بن عيسى،الذي بدأت أعماله تظهر منذ سنوات البسعينات من القرن الماضي،حين بدأ ينقل أعمال كاتب ياسين المسرحية من اللغة الفرنسية،إلى اللهجة العامية الجزائرية.ثم تحول بعد ذلك للتأليف والإبداع في مجال المسرح،حيث قدم أعمالا مسرحية هامة جدا،لقيت نجاحا كبيرا،أهمها مسرحية"بوعلام زيد القدام"(1975م)،ومسرحية"بابور غرق"(1983م)،ومسرحية"أنت خويا وانا شكون؟"(1990م).وفي مطلع التسعينات من القرن الماضي،عاد للكتابة باللغة الفرنسية،حيث عرض بداية من سنة ألف وتسعمائة وواحد وتسعين(1991م)،العديد من الأعمال المسرحية في بلجيكا.

من خلال هذه النماذج المسرحية الرائدة،يوقفنا المسرح الجزائري على خصوصية التوجه الاجتماعي والتاريخي لمضامينه الفنية.حيث أن التوجه الثوري الذي تحلت به مضامينه،تثبت قيمة وأهمية الالتزام

---

1 Achour Chorfi :mémoire algérienne,dictionnaire boigraphique,ed,dahlab,alger 1996,p :135

الذي كانت عليه المسرحية الجزائرية.فقد مثلت قضية التحرر من ربقة الاستعمار أهم خاصية للالتزام المسرح الجزائري بقضايا الأمة الراهنة آنذاك.وليس بعيدا أن يكون التحول التاريخي للمجتمع الجزائري،عبر عقود من الزمن قد أسهم في تثمين نمط من الوعي الوطني،أدى إلى وجود مثل تلك المضامين الثورية في المسرح.

إن مجمل التطورات التاريخية التي عرفتها الجزائر،عبر عقود من الزمن،وصولا إلى مطلع الخمسينات من القرن الماضي،أنتجت نماطا جديدا من الأدب،كانت له انعكاسات هامة على النمط المعيشي للمجتمع.ويمكن الإقرار أن الإنتاج المسرحي الجزائري،خلال تلك الحقبة التاريخية،هو التطور الطبيعي لمجمل التحولات التاريخية،ذات العلاقة المباشرة بطبيعة النمط الاقتصادي والطبقي السائد في المجتمع في أوانه.وحتى اللغة المسرحية في معالجتها لوقائع المجتمع،هي التطور الطبيعي لخصوصية النمط الاقتصادي للشعب الجزائري خلال تلك الفترة التاريخية.

أما عن القصة الجزائرية القصيرة بالتعبير الفرنسي،فلم تحظ بالأهمية المثلى شأنها في ذلك شأن الشعر.حيث ظهرت متأخرة بالقياس للرواية والشعر،وكان الكاتب محمد ديب من رواد الكتابة القصصية في الجزائر،بمجموعته الأولى"في المقهى"(1955م).

يقابل القارئ في هذه المجموعة شخصيات فنية مشتركة،مع ثلاثية الكاتب الشهيرة.كشخصية "عمر"،والعمة"حسناء"،وابنة العم الصغيرة.فالكاتب يقدم في مجموعته أحداثا جديدة،كان قد أشار إلى بعضها في ثلاثيته،كزواج ابنه العم الصغيرة،وهو الحدث الذي يختص بقصة كاملة لوحده بعنوان"زواج بديع".وتفهم بعض الأحداث في المجموعة القصصية،من خلال تطور حياة الأبطال،أو تطور وعيهم،كالطفل عمر مثلا،الذي طالما عاني من حياة البؤس والجوع،يستنتج بتلقائية أن السعادة الحقيقية لا تكمن في الأكل وسد رمق الجوع فقط،إنما تتمثل في شعور الإنسان بالمتعة الداخلية والرضى.

اتخذت القصة الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية بعد الاستقلال،الثورة التحريرية موضوعا أساسيا بالنسبة لها،شأنها في ذلك شأن سائر الأنواع الأدبية الأخرى التي عرفتها الساحة الثقافية في

الجزائر.وكالعادة كان الكاتب محمد ديب سباقا في هذا المجال بمجموعته القصصية الثانية بعنوان"الطلسم"(1966م).ثم تأكد موضوع الاهتمام بالثورة التحريرية،في أعمال الكتاب الذين كتبوا بعد ذلك قصصا قصيرة باللغة الفرنسية،رغم قلتهم،أمثال الكاتب قدور محمصاجي،في مجموعته القصصية"زهور نوفمبر"(1969م)،والكاتب مولود عاشور في مجموعاته القصصية"الناجي"(1971م)،و"عباد الشمس"(1973م)،و"آخر موسم للعنب"(1975م)،و"أيام المعاناة"(1983م).حيث شكل موضوع الثورة التحريرية حدثا هاما في أكثرية قصص هذه المجموعات.

وما يلاحظ على مسار القصة الجزائريه القصيرة،التي كتبت باللغة الفرنسية،أن مساهمة الكتاب الجزائريين في مجالها،بدا ضعيفا نوعا ما،إلى حدود مطلع الثمانينات من القرن الماضي[1].حيث أن الكاتب مولود عاشور الذي يعد أغزر الكتاب الجزائريين إنتاجا في مجال القصة القصيرة،لم تتجاوز مجموعاته القصصية الأربع مجموعات[2].ومن الناحية،فقد تميزت القصة الفرنكفونية الجزائرية القصيرة،بتجاوز الشعارت والدعوات التعبيرية الجاهزة.كما كانت مستغنية عن لهجة المواعظ والدعاية،مع تسجيل بعض الصيغ التعبيرية،والعبارت التركيبية المتكررة[3].

وإن كانت اللغة القصصية في الجزائر قد حققت استجابة نوعية،في التعبير عن خصوصية الواقع الاجتماعي الذي عاشه الجزائريون،خلال مرحلة تاريخية معينة،فما يمكن فهمه هو أن التحولات المستمرة التي عرفها المجتمع الجزائري خلال مراحل تطور وعيه،جعل من الأدب القصصي يحدث خاصية فنية هامة،في مواكبة مجمل تلك التحولات الجديدة،ذات الصلة المباشرة بتطور البنية الطبقية والاجتماعية في المجتمع.

---

[1] هذا ما يستنتج من قول الدكتور عبد الله ركيبي حين يقول:«على أن الملاحظ أن الباحثين عندنا يتعرضون لمناقشة هذا الأدب،إنما تنصب عنايتهم بالدرجة الأولى على الرواية والشعر والمسرحية.ويغفلون الحديث عن القصة القصيرة بالفرنسية».يراجع في ذلك:د/عبد الله ركيبي:القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،القاهرة 1969،ص:246.

[2] ينظر في ذلك الدكتورة عايدة بامية:تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967،ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر،1982،ص:379.

[3] المرجع نفسه،ص:382

ومواكبة الإنتاج الفرنكفوني القصصي في الجزائر،لمختلف تلك التطورات الحاصلة،نتاج طبيعي لتطور الوعي الفني بأهمية القصة القصيرة في التعبير عن خصوصيات المجتمع الجزائري،تبعا لتطور النمط الطبقي الذي صنعته المنظومة الاقتصادية التي كانت سائدة في الجزائر آنذاك.

أن يكون الإنتاج الأدبي بشكل عام نتاجا لمجمل التحولات التاريخية،ذات العلاقة المباشرة بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية،رأي فيه الكثير من الموضوعية والإيجابية.ذلك أن النمط الحياتي ينعكس بصفة مباشرة وآلية على طبيعة التفكير الخاصة بالفرد.فالمنظور الفكري أو الفني،هو صياغة حية لطبيعة التطورات الاجتماعية والاقتصادية الحاصلة في صميم البنية الاجتماعية الواحدة،بطريقة يكون فيها الفكر،تجسيدا لنمط الوعي المتجلي وفق خصوصيات تلك التطورات.

والرواية الفرنكفونية الجزائرية بعد الاستقلال،بدأت تعرف توجها جديدا،لاسيما منذ متصف الستينات من القرن الماضي.حيث برزت كأدب اجتماعي واحتجاجي نتيجة بروز النزعة السياسية الانتقادية بقوة،على مستوى متنها الروائي[1].ويلاحظ أن معظم هذا النوع من الرواية،نشر في "فرنسا"،كأعمال الكاتب الجزائري محمد ديب،التي ظهرت ما بين سنتي ألف وتسعمائة وثمانية وستين،وألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين(1968-1973م).حيث شهدت هذه الفترة ظهور العديد من الأعمال الجديدة للكاتب،مثل رواية"رقصة الملك"(1968م)،ورواية"إله أرض البربر"(1970م)،ورواية"معلم الصيد"(1973م).بالإضافة إلى أعمال روائية لكتاب جزائريين،كتبوا باللغة الفرنسية،كرواية"المؤذن"(1968م)للكاتب مراد بوربون،ورايتي"التطليق"(1969م)،و"ضربة شمس"(1972م)للكاتب رشيد بوجدرة،ورواية "موت صالح باي"(1980م)للكاتب نبيل فارس.هذه الروايات ركزت بشكل تقريبي وعميق في الكثير من الأحيان،على نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر،خلال مرحلة ما بعد الاستقلال مباشرة.

ويكون الظرف التاريخي الذي ساد الجزائر،بعد حكم نخب سياسية معينة،أدى إلى وجود حالات هامة من الخلاف الواضح،حول تسيير شؤون البلاد.مما حتم ظهور وجهات نظر متعددة،تصل أحيانا

---

1 Voir guy daninos,les nouvelles tendances du roman algérien de langue française,ed,naaman sherbrooke,québec,canada,1979,p :121et 130.

إلى حد الاختلاف والمفارقة.والرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية،في استيعابها لمجمل التحولات التاريخية الحاصلة،إنما هي تستوعب تحولات طبقية عميقة في صميم البنية الاجتماعية الموحدة للمجتمع الجزائري،التي بدأت تعرف المزيد من التناقضات على مستوى بناها التركيبية.

مع أن هذه التناقضات في جوهرها،ليست نتاجا لتحولات اقتصادية عميقة،بحكم أن التطور لم يعرف مداه بعد،إلا مع مطلع السبعينات من القرن الماضي،حيث بدأ ظهور الثروة يبرز بشكل واضح وكبير.إنما هي نتاج لطبيعة الوعي الثوري الذي كان حديث عهد بتسيير شؤون بلاد،بعدما كان منشغلا بتحريرها من ربقة الأجنبي.

وقد مثلت التطورات الاقتصادية الجديدة،وتطور مصادر الثروة في الجزائر، تحولا تاريخيا اكتسب المتن الروائي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية،منظورا جماليا انتقاديا جديدا في الوقت نفسه.ففي سنة ألف وتسعمائة واثنين وثمانين(1982م)،ظهرت رواية"النهر المحول"للكاتب رشيد ميموني.وهي رواية عبرت عن أهداف وطموحات شعبية وسياسية بطريقة رمزية،يفهم منها تحول المسار التنموي في الجزائر،عن مساره الحقيقي الذي وجد من أجله،بشكل أدى إلى تطور طبقي جديد،مكن من ظهور فئات برجوازية ذات نفوذ مؤثر،سمح بتشكيل أنموذج جديد للوعي.ثم ظهرت رواية"طومبيزا"(1984م)للكاتب نفسه،وهي الرواية التي حملت مرارة أكبر نتيجة التطورات الاجتماعية السلبية التي لم تكن في صالح الفئات الهشة من أبناء المجتمع.فالبطل في الرواية يعاني من الفقر والاعتلال الصحي،ويعاني كذلك من النبذ الاجتماعي،لأنه ولج العالم الطبيعي نتيجة عملية اغتصاب تعرضت لها أمه،التي ضربت حد الموت،ثم فارقت الحياة بعد ولادته[1].

وبمطالعة أعمال الكاتب الطاهر جاووت يلاحظ التوجه الانتقادي ذاته،ولكن برمزية واضحة أكثر إيغالا في الغموض،حيث عبرت عن ذلك رواية"البحث عن العظام"(1984م).وعبرت عن التوجه نفسه رواية"منزوع الملكية"(1981م)،التي يقترب فيها وضع البطل الروائي إلى حد كبير من وضع البطل في رواية"طومبيزا" للكاتب رشيد ميموني[2].والموضوع المشترك بين الروايتين هو معالجة أزمة

[1] د/أحمد منور:الأدب الجزائري باللسان الفرنسي،ص:121

[2] لذلك تبدي السيدة كريستيان عاشور تحفظا على اعتبار"منزوع الملكية" رواية،حتى وإن نشرت على أنها رواية.يراجع في ذلك:

الهوية،بسبب انعدام اللغة الأم،التي هي وسيلة التعبير الأساسية.وحتى في رواية منزوع الملكية،يلاحظ أن الكاتب وظف الرمز بشكل كبير،ليتمكن النص من خلط الأساليب السردية،لترتسم مأساة الشخصية الروائية بوضوح،وبشكل أكثر تأثيرا.

استمر الاتجاه الانتقادي في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية في الظهور،حتى بعد أحداث الخامس من شهر أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثمانية وثمانين(05/أكتوبر/1988م)،وصدور دستور الثالث والعشرين من شهر فيفري عام ألف وتسعماية وتسعة وثمانين(23/فيفري/1989م)،الذي يعد أول دستور جزائري سمح بالتعددية السياسية والحزبية.فكانت رواية "شرف القبيلة" للكاتب رشيد ميموني من أهم الروايات التي ظهرت في ذلك الوقت،منتقدة سلوكات المسؤولين البيروقراطية.

تعددت مظاهر الاتجاه الانتقادي في الرواية الجزائرية الفرنكفونية،ولم تقف عند حدود المعارضة السياسية البحتة،أو نقد الأوضاع الاجتماعية التي كانت تعيشها الجزائر،نتيجة الفساد الذي استشرى وقتها؛إنما طرحت الرواية مسائل أخرى جوهرية لعل أهمها،مسألة الهوية الوطنية،لاسيما مسألة الأمازيغية التي عبرت عنها بحوث الكاتب مولود معمري الأنثربولوجية،وكذا روايته الأخيرة"العبور"(1982م).وقد طرحت مسألة الهوية أيضا في منجزات أدبية أخرى،كما هو واضح في مسرح كاتب ياسين،الذي غالبا ما تميز أسلوبه بنزعة استفزازية،تسخر من بعض القيم(1).وكذلك الأعمال الروائية للكاتب نبيل فارس،كرواية"ذاكرة الغائب"(1974م)،ورواية"المنفى والحيرة"(1976م)،التي غالبا ما طرحت أسئلة حول الهوية المستلبة،والثقافة الأصيلة المغيبة.

وبالعودة إلى أعمال الكاتب الطاهر جاووت الروائية،يلاحظ طرح المسائل ذاتها المتعلقة بمسألة الهوية،خاصة في روايته"اختراع الصحراء"(1987م)،والتي كانت رواية منتقدة للتاريخ الإسلامي للمغرب العربي أساسا من خلال شخصية "المهدي بن تومرت"التاريخية.حيث كان توظيف التاريخ هنا،وسيلة إسقاط حية على واقع الحركات الإسلامية الحديثة.

Christiane achour :anthologie de la littérature algérienne de langue française,ed,enap,alger,1985,p :141.

[1] في هذا الصدد يمكن ذكر على وجه الخصوص،مسرحياته:"مسحوق الذكاء"،و"محمد خذ حقيبتك"،و"حرب الألفي سنة"،....إلخ،وكلها أعمال تصب في هذا الاتجاه.

ومع أواخر السبعينات إلى مطلع ثمانينات القرن الماضي،ظهر أدب روائي فرنكفوني مهادن للسلطة،وعلى درجة من الحيادية في مواقفه.تناولت هذه الروايات مواضيع ذات صلة بالثورة التحريرية،كرواية "المغارة المتفجرة" لآمنة مشاكرة(1979م)،ورواية"التمزق"(1980م)،ورواية"الامتحان الأخير"(1983م) للكاتب محمد شايب.وأعمال الكاتب عز الدين بونمور"عصابة الأطلس"(1983م)"أسود الليل"(1985م)،و"الأطلس يحترق"(1987م).

كما وجدت روايات بالتعبير الفرنسي أخذت موضوعاتها،من واقع الجزائريين المعاش،ورصدت التحولات الاجتماعية والسياسية للمجتمع[1].إلى جانب روايات السيرة الذاتية كروايتي"الشمس تحت الغربال"(1982م)،و"النظرة المجروحة"(1987م)لرابح بلعمري.ورواية"رأس المحنة"(1991م)للكاتب عبد الرحمان الوناس.

مثل التنوع الأدبي في الجزائر،خاصية هامة للتطور والتحول سواء من حيث نقد المواضيع المطروحة على الساحة الوطنية والاجتماعية،أو من حيث المحاولات الجادة لاستيعاب المزيد من الخصائص والجمالية لفن الرواية على وجه التحديد.

ولأن ظاهرة التطور الأدبي بشكل عام،ذات صلة مباشرة بطبيعة التحولات التاريخية المستمرة،والتي غالبا ما تكون ذات علاقات جوهرية بأنماط التحولات الاقتصادية القائمة على وجه الخصوص.فطبيعة الفكر النقدي الذي ميز النماذج الروائية المذكورة،أكد خاصية جمالية هامة،وهي تلك المتعلقة بمواكبة ظاهرة التطور الأدبي لمجمل التحولات الاجتماعية والتاريخية في المجتمع.

يبرر هذا الطرح من جانب آخر كون الظاهرة الأدبية،في كثير من تطوراتها تجل صريح لمختلف التحولات الاقتصادية ذات الصلة المباشرة بالواقع الحياتي للفرد الجزائري.وواقعية الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية،هي استجابة لطبيعة النمط المعيشي للأفراد والجماعات،تبعا لأنمط التحولات الجدلية المستمرة التي يعرفها المجتمع.

---

[1] مثل موضوع الإصلاح الزراعي الذي شرع في تنفيذه تحت اسم"الثورة الزراعية"،في بداية السبعينات من القرن الماضي.وأسال الكثير من الحبر.

فنقد الواقع الاجتماعي مثلا،هو نتاج للتطورات الجديدة،التي عرفتها الجزائر بعد الاستقلال،عندما بدأت تظهر الثروة،وبروز أنماط تسيير في الجهاز الإداري للدولة.فالثروة من هذا المنظور شكلت أنموذجا نوعيا لتطور الوعي الانتقادي لدى النخبة الثقافية،بشكل أثبت وجود علاقة جوهرية بين تطور الرواية والتحولات الحاصلة على مستوى الواقع الاجتماعي.

ولا تختص ظاهرة التنوع الأدبي في الجزائر،بفترة تاريخية معينة كفترة ما بعد الاستقلال مثلا؛فالرواية الجزائرية التي كتبت باللغة الفرنسية،وجدت بنماذج متقدمة خلال فترة الاستعمار الفرنسي،وقدمت تصويرا واقعيا فنيا،لحالة المجتمع خلال تلك الفترة.هذا يثبت تطورا فنيا للرواية الجزائرية،خلال فترة تاريخية معينة بشكل يحدد العلاقة الانعكاسية المباشرة للفن على الواقع،أو أن الفن هو انعكاس للواقع الاجتماعي والتاريخي الذي عاشه الجزائريون آنذاك.

من الواضح جدا أن الجزائر شهدت خلال الفترة الاستعمارية أنشطة اقتصادية متعددة،حددت حياتها الاجتماعية.فالنشاط الزراعي مثلا كان نشاطا كولونياليا صرفا،بطريقة أدى إلى وجود تفاوت طبقي واجتماعي في المجتمع.هذا التفاوت كان من نصيب فئة المعمرين الأجانب.والرواية الجزائرية الفرنكفونية التي وجدت في ذلك الوقت،عبرت عن خصوصية مجتمع متدهور إلى حد ما،من الناحية الاقتصادية والاجتماعية،بشكل تم فيه رصد مظاهر البؤس والحرمان التي كان يعاني منها على وجه التقريب عامة الشعب.

هكذا و على وجه التقريب كانت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية،نتاجا طبيعيا وآليا لمجمل التحولات الاقتصادية والتاريخية الحاصلة في المجتمع الجزائري في ذلك الوقت.واستجابة في الوقت ذاته،لنمط التفاوت الطبقي الذي ميز المجتمع،في وقت خضع فيه لهيمنة استعمارية.

واسترداد الثروة خلال مرحلة الاستقلال الوطني،أعطى الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية،إمكانية جمالية جديدة في التصوير،لكن هذه المرة من منظور نقد أنماط التسيير والسياسة بشكل أثبت تميزا هاما في تطور أنماط الوعي في المجتمع.فكانت ظاهرة الأدب الانتقادي التي استمرت بشكل واضح خلال فترة السبعينات من القرن الماضي،مرورا بفترة الثمانينات.وبولوج فترة التسعينات

صار التوجه الانتقادي في الرواية الجزائرية،يأخذ منحى جديدا من خلال نقد المنظومة الدينية الأصولية التي اجتاحت المجتمع الجزائري وقتها.فظهرت أعمال روائية انتقدت هذا الاجتياح،من باب كونه يشكل خطرا على الديمقراطية والحريات في الجزائر.فظهرت رواية "اللعنة"(1993م) للكاتب رشيد ميموني،وكذلك مجموعته القصصية"حزام الغولة"(1991م)،وشكلت أمثلة فنية جسدت علاقات الصراع التي كانت قائمة في ذلك الوقت،بين أنصار الاتجاه الأصولي والسلطة[1].

ونقد الاتجاهات الأصولية أو الدينية،في الرواية الجزائرية الفرنكفونية ليس جديدا.حيث وجد هذا النقد منذ ثلاثينات القرن الماضي،بداية برواية"بولنوار"للكاتب رشيد زناتي،ثم رواية "المؤذن"للكاتب مراد بوربون في الستينات،مرورا برواية"اختراع الصحراء"في الثمانينات للكاتب الطاهر جاووت؛إذ يفهم أن أسلوب النقد يتغير بحسب وجهة نظر الكاتب وعقيدته الإيديولوجية والفكرية،وبحسب المتغيرات الاجتماعية والتاريخية التي تحتضن المنظومة الدينية موضوع النقد.

وقد شكلت ظاهرة هجرة الجزائريين إلى فرنسا،بمختلف انتماءاتهم الطبقية نخبة أدبية وفكرية،هي نتاج طبيعة المناخ الثقافي والحضاري الفرنسي،لكن بروح وطنية جزائرية أمثال:زوليخة بوقرط،وعلي غالم،ومهدي شارف،وجانيت لشمط،وآكلي تاجر،ومحمد كنزي،وناصر كتان،...وغيرهم من الكتاب الآخرين الذين درجوا على الكتابة باللغة الفرنسية.فبحكم الأصول الجزائرية لهؤلاء الكتاب،كثيرا ما تناولوا موضوعات لها صلة بالواقع الجزائري،والحياة اليومية للجزائريين،حتى لو كانت تلك الوقائع من صميم الحياة اليومية للجزائريين في فرنسا.وأدب هؤلاء الكتاب،هو امتداد للكتابات الجزائرية التي عرفت معايشة لمختلف الحقب الزمنية سواء في الجزائر أم في فرنسا،وإن تميز أدبهم أحيانا بنوع من التمرد على القواعد الفنية واللغوية،فحتما فإنه يعكس خصوصية واقعية مميزة،هي من صميم واقع الإنسان الجزائري بمختلف قيمه الحضارية،سواء في الجزائر أم في فرنسا.

---

[1] أصدر رشيد ميموني في هذا الصدد كتابا،ينتقد فيه الإسلاميين بشكل مباشر بعنوان"عن البربرية بوجه عام،والأصولية بالخصوص".

De la barbarie en général,et de l’intégrisme en particulier,ed,père aux clercs,France 1992.

وكان رشيد بوجدرة قد سبقه إلى نقد الإسلاميين بكتيب صغير مماثل يحمل عنوان"فيس الحقد"،أو بترجمة حرفية"جبهة الحقد الإسلامية للإنقاذ".

Rachid Boudjedera :le fis de la haine,ed,bouchene,alger 1992.

إن ظاهرة التنوع الأدبي الفرنكفوني في الجزائر،ذات خصوصية مميزة من حيث كونها ظاهرة ناتجة،عن مختلف التحولات الاجتماعية والاقتصادية،ذات الصلة بالتحولات التاريخية الجدلية الحاصلة.وإن جسد الإنتاج الأدبي الفرنكفوني الجزائري الحديث،مظاهر حية للصراع بمختلف مظاهره وخصائصه،فقد كان هذا بحسب طبيعة الأنماط الطبقية التي ميزت المنظومة الاجتماعية الجزائرية خلال فتراتها التاريخية المتعاقبة،والتي أنتجت نمطا للوعي،جسد توجها فنيا على مستوى الإنتاج الأدبي.

وفهم ظاهرة التنوع الأدبي الفرنكفوني في الجزائر،يحتم الإلمام بطبيعة التغيرات الجدلية التي غالبا ما تصنعها التحولات المتواصلة الحاصلة في طبيعة البنية الاقتصادية،التي تحتم إنتاج منظومة فكرية تستجيب لأنماط تلك التحولات الحاصلة.هذا يعني أن مناقشة ظاهرة التنوع الأدبي الفرنكفوني في الجزائر،لا يكون إلا ضمن العلاقة المباشرة التي تحكم الإنتاج الأدبي،بالأنماط الاقتصادية والتاريخية المتغيرة.

المحاضرة السابعة

النقد التنظيري الفرنكفوني في الجزائر-رؤية في التطور التاريخي-

غداة الاستقلال لم يوجد نقاد جزائريون ودارسون متميزون،أخذوا على عاتقهم دراسة الأدب الجزائري.حيث بقيت المنجزات الأدبية الجزائرية تعاني فراغا كبيرا في مجال النقد،والاهتمام.وبقيت تصريحات الكتاب المبدعين،واللقاءات التي تجمعهم في مناسبات مختلفة مع الصحافة أو الجمهور القارئ-رغم محدوديته-،المرجع الوحيد لرصد وتحديد توجهات الأدب الجزائري.والتعريف بمواقف الكتاب إزاء القضايا الأدبية أو حتى السياسية المطروحة في ذلك الوقت.وطبيعي جدا أن تكون تلك التصريحات واللقاءات،ذات طابع ارتجالي،تتعلق بالظرف الزمني الذي كانت فيه،كما شابتها الذاتية،التي لا تعبر عن منظور نقدي فعلي،الشئ الذي جعل من النصوص النقدية ذات الطابع الدراسي،نادرة جدا[1].وحتى ما وجد منها،فهو لا يعبر عن مفاهيم الكتاب للعملية الأدبية،ولا يحمل أي تصور للرسالة الاجتماعية أو السياسية التي ينبغي أن يتحلى بها الأدب.

ومع ذلك فقد عرف الأدب الجزائري اهتماما نقديا هاما،من لدن بعض المثقفين الفرنسيين،وكذا المؤرخين والباحثين،الذين خصصوا له اهتماما نوعيا،خلال المرحلة الاستعمارية وبعدها،أمثال:"جون ديجو"،"شارل بون"،"جاكلين أرنو"،و"كريستيان عاشور"[2].

وقد مثلت الجامعة الجزائرية،أنموذجا فعليا في تنمية النقد الأدبي الفرنكفوني،من خلال الطروحات الجامعية الأكاديمية المقدمة من لدن طلبة الدراسات العليا،ضمن التخصصات المختلفة للنقد.حيث تميزت بتحديد المواضيع المدروسة،والتركيز على قضايا بعينها.كما تميزت تلك الدراسات بالموضوعية والمنهجية العلمية المحكمة.

وتعرف المكتبات الجامعية الكثير والكثير من تلك الأطروحات الأكاديمية،بدافع تنمية البحث العلمي،وترقية الدراسات النقدية والفكرية المتشعبة.كما رأت الكثير من تلك الدراسات النور،بفضل

---

[1] ينظر في ذلك الدكتور:أحمد منور،الأدب الجزائري باللسان الفرنسي،ص:116/115.

[2] الباحثة كريستيان عاشور،باحثة جزائرية من أصل فرنسي.وتجدر الإشارة أيضا إلى أن معظم الترجمات الخاصة بالأدب الجزائري ذي التعبير الفرنسي.والنقل من لغة إلى لغة أخرى،تمت بجهود مترجمين مشارقة،من لبنان،وسوريا،ومصر،باستثناء بعض الترجمات القليلة التي تمت في الجزائر،وتونس،والمغرب مؤخرا.

دور النشر المتعددة داخل الوطن وخارجه،التي تبنت تلك الأطروحات ونشرتها في شكل كتب،صارت مراجع هامة فيما بعد.

وفي هذه الحال يكون العامل التاريخي المتمثل في استقلال الجزائر،قد أدى دورا حاسما،في إنتاج نخبة فكرية جامعية،أخذت على عاتقها تأسيس المخابر ووحدات ومراكز البحث.هذه الإمكانات مكنت من تنمية وترقية الفكر النقدي الفرنكفوني ،بشكل مكن من إيجاد المزيد من الدراسات الأكثر تخصصا ودقة وتحديدا.

وبالعودة إلى العقود السابقة من تاريخ الحركة الثقافية في الجزائر،سجلت بعض المناقشات المتفرقة،في بعض المناسبات على صفحات الجرائد والمجلات،بأقلام كتاب جزائريين؛اختصت هذه المناقشات بمعالجة قضايا أدبية وفكرية معينة.كما تمت مناقشة مضامين بعض الروايات الجزائرية الصادرة باللغة الفرنسية،وبعض المسائل المتعلقة بطبيعة بناها الفنية.كتلك المناقشات التي جرت في مطلع الخمسينات من القرن الماضي،حول رواية"الربوة المنسية"لمولود معمري،عندما صدرت لأول مرة سنة ألف وتسعمائة واثنين وخمسين ميلادي(1952م).

اشترك في هذا النقاش مثقفون جزائريون وفرنسيون ومستوطنون أيضا.فمن القراء من رحب بهذه الرواية،وراحوا يثرون النقاش حول موضوعها وأحداثها.ويطرحون تساؤلات معرفية حول خصوصية مراميها ومقاصدها،كنقد بعض العادات في المجتمع التقليدي مثلا([1]).وغير بعيد عن مثل تلك التساؤلات،فالرواية لم تكن بعيدة عن الكشف عما كانت تعانيه الطبقة الفلاحية من أبناء الشعب الجزائري،التي كانت تعاني الاستغلال وقتها،والحيف الاجتماعي. ومن المثقفين من انتقد توجه الكاتب في روايته للتلميح،لبعض المسائل ذات الارتباط بالأوضاع السياسية والاجتماعية،وعبر عن أمله بالتزام الكاتب بقضايا وطنه الراهنة[2].

[1] يراجع في ذلك محمد الصالح دمبري:مجادلات حول الربوة المنسية لمولود معمري،ترجمة حنفي بن عيسى،مجلة الثقافة-الجزائر،العدد 102،سنة 1989،ص:40

[2] المرجع نفسه،ص:40

كما رحبت الصحافة الاستيطانية بالرواية،وجعلوا من القضية الأمازيغية في الجزائر،نتيجة أصول مؤلفها الأمازيغية،أنموذجا للقرابة الفكرية بين الأوروبيين والأمازيغ[1].حيث عدوا الرواية نجاحا كبيرا وهاما،يخدم رسالة التحضر التي جاءوا لنشرها.

ونتيجة هذا الترحيب المشبوه،من لدن الصحافة الاستيطانية بصدور،رواية الربوة المنسية،حدث رد فعل قوي من لدن الأوساط الوطنية،تمثل أساسا في جملة مقالات كتبها الأستاذ محمد الشريف ساحلي،والأستاذ محفوظ قداش،والأستاذ مصطفى الأشرف.

فمقال الأستاذ محمد الشريف ساحلي بعنوانه المثير"ربوة التنكر"،طالب فيه المؤلف بتحديد موقفه من بعض القضايا الوطنية.وماذا يعني ترحيب الصحافة الاستيطانية بروايته بذلك الشكل المشبوه؟..وهو الموقف ذاته على وجه التقريب للأستاذ محفوظ قداش،عندما اعتبر ترحيب الصحافة الاستيطانية بروايته،إثباتا لتوجهات المستوطنين التي حتما لن تكون في صالح الجزائر،ولا الثقافة الجزائرية.ودعا الكاتب للخروج عن صمته،والتخلي عن المواقف الغامضة.في حين اعتبر الأستاذ مصطفى الأشرف الرواية،امتدادا لتطور الفكر الاستعماري في الجزائر،وأنها أنموذج للهيمنة الثقافية،من لدن المؤسسة الثقافية الاستعمارية[2].

بالنظر لمثل هذه المحاولات النقدية،يفهم جيدا أن الظرف التاريخي كان له الأثر البالغ،في توجه الحركة النقدية في الجزائر،في بداياتها الأولى،توجها تناسب مع طبيعة التحولات الجديدة التي كانت تعرفها الساحة السياسية بالدرجة الأولى في الجزائر.

قد يكون من المنتظر،أن يجد المثقف الجزائري في رواية الربوة المنسية لمولود معمري،ما يحدد موقف صريحا إزاء الاستعمار الفرنسي،وإزاء الحركة الوطنية التي كانت تعرف تطورات هامة،خلال تلك المرحلة التاريخية.لهذا السبب اقتضت المناقشات الفكرية،أن تأخذ ذلك المنحى الوطني،نتيجة ما كانت تقتضيه الظروف التاريخية السائدة في أوانها.

---

[1] المرجع السابق،ص:41

[2] يراجع في ذلك المرجع نفسه،ص:44/42.

ولا تفهم مثل تلك المناقشات على أنها نوعا من الإدانة أو المحاكمة لشخص مولود معمري،ككاتب جزائري له من المساهمات الروائية القيمة،ما هو إدانة صريحة للاستعمار الفرنسي،وإشادة حقيقية ببطولات ثورة التحرير[1]،إنما المنظومة الفكرية الثقافية التي كانت سائدة في أوانها في الجزائر،حتمت وجود قناعات تحررية استجابة للظرف التاريخي الحاسم.حيث أنه من المنتظر أن تكون الجزائر وشعبها،على موعد هام لتغيير جديد،يتطلب تجند كافة الطاقات الفاعلة في المجتمع،بما في ذلك الطاقات الإبداعية.

يفهم كذلك من توجهات النقد الفرنكفوني في الجزائر،من خلال تلك النماذج؛أنها توجهات اختصت بتوجيه الإبداع الأدبي،بحسب التحولات الجديدة التي كان يعرفها المجتمع الجزائري آنذاك،لاسيما على مستوى الساحة السياسية.لذلك كانت الثقافة الجزائرية جزءا من التحولات التاريخية الجديدة،التي غدت تعرف المزيد من التطورات تبعا لطبيعة وأنماط الصراع القائمة بين الاستعمار الفرنسي والقوى الوطنية في الجزائر.

من هذا المنطلق كانت طبيعة البنى الفكرية الثقافية الجزائرية،تجليا صريحا لمختلف أنواع الصراعات التاريخية،التي صنعتها ظروف الاستعمار الفرنسي،وفق ما كانت تقتضيه وقتها آليات التحول الجدلي في مسار تطور الحركة الثقافية في الجزائر.

ومن المتوقع الحديث هنا عن طبيعة اللغة الفاعلة في ذلك الحوار.من الطبيعي جدا أن تكون اللغة الفرنسية لغة حيوية مسهمة،بشكل فاعل في تطور الحوار الثقافي الجزائري،خلال فترة الاستعمار الفرنسي.وهي اللغة التي استمرت لعقود من الزمن بعد الاستقلال.ولعل التطورات المستمرة التي بقبت تعرفها اللغة الفرنسية،على المستوى العالمي،جعلت من ثرائها ما يمكن من تحيين مختلف الأدوار التواصلية واللسانية الموكلة إليها،تزخر بالمزيد من الإسهامات ذات الصلة المباشرة بالحياة العلمية والثقافية على حد سواء.

[1] مثلا روايته نوم العادل التي صدرت سنة 1955م.وروايته الأفيون والعصا،التي صدرت عقب الاستقلال الوطني مباشرة سنة 1964م.

والمحاولات النقدية الفرنكفونية الجزائرية خلال الحقبة الاستعمارية،هي أنموذج لتطور المنظومة اللغوية والفكرية والتعليمية للمستعمر.حيث أنه لا يمكن التفكير أن الاستعمار الفرنسي،ينتج نخبة ثقافية جزائرية تنطق بغير لغته،ولا تكون تواصلا مع منظومته اللغوية واللسانية.أما من الناحية الفكرية،أو ما يسمى بالموالاة المطلقة،أو"النخبة الفرنكوفيلية" فهذا جانب آخر لطالما اجتهد من أجله المحتل الفرنسي،بغرض مواصلة فرض الهيمنة،وإدامة التواجد الاستيطاني.لذلك مثلت التوجهات الفكرية وفق مقتضيات الهيمنة الاستعمارية،جانبا هاما من جوانب الصراع المؤكدة لحيثيات تاريخية ،عرفت المزيد من التحولات وفق منظور الهيمنة الطبقية.

قد يكون الاستعمار الفرنسي من وراء صناعته لنخبة ثقافية،سعى لإحداث تطور جانبي آخر في منظومته الثقافية واللغوية.وهذا مؤكد،لكن تبقى طبيعة التطور المراد،هو السعي الحثيث لإنتاج منظور ثقافي وفكري،يمكن من الحفاظ على امتيازات الأقلية الاستيطانية في المجتمع،بشكل يسمح بالاستغلال ومصادرة الثروة.وهذا هدف آخر وهام جدا،من أهداف المستعمر،كون البنية الفكرية الموالية،لا تقل أهمية عن باقي الأساليب الأخرى في الحفاظ على الهيمنة،والامتيازات الطبقية والاجتماعية.

بعد الاستقلال ونهاية صراع النخب الوطنية،ضد المستعمر الفرنسي،عرفت السنوات الأولى مناقشات فكرية على مستوى صفحات الجرائد الصادرة.وأشهرها تلك المناقشة التي أثارها مقال الأستاذ مصطفى الأشرف سنة ألف وتسعمائة وثلاثة وستين(1963م)،حول مستقبل الثقافة في الجزائر،ونشرته مجلة"الأزمنة الحديثة"الفرنسية(1).وتمحورت المناقشة حول قضايا ذات الصلة بالثقافة والأدب.وشاركت فيها نخبة من المثقفين والكتاب الجزائريين أمثال:مراد بوربون،محمد بودية،بشير حاج علي،مالك حداد،ومحمد حربي(2).عكف فيها المشاركون على تجاذب أطراف الحوار،حول أهم القضايا الجوهرية ذات العلاقة المباشرة،بالخلفيات الثقافية والأدبية في الجزائر.وجوهر الحركية الثقافية

---

[1] Mostefa lacheref :l'avenir de la culture algérienne,in les temps modernes,numero 209,octobre 1963,p :720-745

[2] Cf,révolution africaine,numero s,45,46,47,48,49,50,57 du 7-14-21 décembre 1936.et du 14-11-29 janvier 1964,succéssivement,et el moudjahid,numero s 157 du 7/12/1963-160 du 28/01/1964

الراهنة وما ينتظرها من تحديات جديدة.وعلى الرغم من محدودية الطرح في النقاش،وضعف الجانب الموضوعي فيه،إلا أنه مثل منظورا تأسيسيا لبدايات حوار ثقافي جاد،على مستوى النقد الأدبي الجزائري الحديث،ممهدا بذلك لأهمية الوعي بقيمة المنهجية العلمية للطرح النقدي،ودراسة الإنتاج الأدبي في الجزائر(1).

لكن ما ينبغي التنويه به،هو أن الكاتب مالك حداد،كان سباقا لطرح موضوع مستقبل الثقافة والأدب في الجزائر،قبل الاستقلال بشهور عديدة.وذلك في مقال مطول نشر سنة ألف وتسعمائة وواحد وستين ميلادي(1961م) بعنوان"الأسفار تدور في فراغ".

وتجددت المناقشات الفكرية حول قضايا الأدب واللغة،أهمها الندوة التي أدارها الأستاذ محمد الصديق بن يحي حول موضوع التعريب واللغة الفرنسية ومستقبل الأدب الجزائري،والتي نشرتها يومية المجاهد ذات التعبير الفرنسي.حيث شارك في إثراء الندوة كل من:مولود معمري،آسيا جبار،محمد الشريف ساحلي،محمد بودية،وجان سيناك.ورغم تباين وجهات النظر،وثراء الندوة بمختلف الآراء والطروحات النقدية والفكرية،إلا أنه لم تلمس نتائج واضحة،بشأن الموضوع المتعلق،بمستقبل التعريب والثقافة والأدب في الجزائر.

وبداية من سنة ألف وتسعمائة وخمسة وستين ميلادي(1965م)،وبعد التحول السياسي الهام الذي أحدثه التصحيح الثوري في التاسع عشر من شهر جوان من العام نفسه(19/جوان/1965م)،وتشكل مجلس الثورة برئاسة الرئيس الراحل هواري بومدين،تفرق أعضاء"جمعية الكتاب"،التي كانت قد تأسست ذات الثامن والعشرين من شهر أكتوبر سنة ألف وتسعمائة وثلاثة وستين ميلادي(28/أكتوبر/1963م)،خصوصا أقطابها الذين ذئبوا على الكتابة باللغة الفرنسية.وفضلوا حياة المنفى خارج الوطن،لاسيما في فرنسا.حيث كانت حجتهم في ذلك ،عدم توفر المناخ الديمقراطي الذي يمكنهم من التعبير عن آرائهم الفكرية بكل حرية.غير أن دوافعهم السياسية في مغادرة البلاد، لم تكن واضحة.

1 يراجع في ذلك عرض لهذه المناقشة الفكرية،للدكتور عبد الله الركيبي:الفرانكوفونية مشرقا ومغربا،دار الأمة-الجزائر 1993،من صفحة 259 إلى صفحة 264.

وما يمكن إثباته،هو أن التطورات الجديدة التي عرفها النقد الأدبي الفرنكفوني في الجزائر،تطورات تحسب لفائدة مرحلة تاريخية معينة،هي مرحلة تأسيسية لحوار ثقافي وفكري،ذو توجه ثوري واجتماعي ووطني،بغض النظر عن المنظور الفكري والعلمي العميق الذي كان ينبغي عليه أن يتميز به.ومع ذلك فالظروف التاريخية ذات الصلة المباشرة،بتطور الفكر الثقافي والنقدي في الجزائر،لها انعكاسات مباشرة على تطور المنظورات النقدية،التي بدأت في التبلور،بشكل دعا إلى التفاؤل النسبي في تأسيس رؤية ثقافية ونقدية جزائرية،في انتظار المزيد من التطورات الجديدة.

مع أن مواكبة النقد الأدبي الفرنكفوني في الجزائر،للإنتاج الأدبي الإبداعي بشكل إيجابي نوعا ما،من خلال اهتمامه بقضايا الأدب المطروحة،فهذا أمر مألوف جدا.فمن الطبيعي جدا أن ينشأ النص النقدي، في ظل النص الإبداعي،وتكون المرافقة تبعا لطبيعة الظروف التاريخية والاجتماعية المتحولة،التي كانت تعرفها الجزائر في أوانها.لكن أوجه الصراع والاختلاف،التي عرفتها الحوارات النقدية الفرنكفونية في بداياتها الأولى،هي الانعكاس الحتمي لمجمل التطورات التاريخية،ذات الصلة المباشرة بأنماط البنى الاقتصادية والطبقية،التي صنعتها القوى الاستعمارية في الجزائر،وفق منظور يمكن من استغلال الثروة والإنسان معا.

وبحكم أن الإنتاج النقدي يمثل بنية فكرية مميزة،فهذا الإنتاج هو الأنموذج النوعي لفاعلية ثقافية نخبوية،سعت بحسها الثوري للاقتراب ولو بشكل نسبي،لطبيعة الإنتاج الأدبي الصادر آنذاك،وفق مقتضيات التحولات الحاصلة في طبيعة البنية الاقتصادية،ذات الصلة بالنمط المعيشي للفرد الجزائري.وهذا سبيل العلاقة الواضحة بين النقد التنظيري الفرنكفوني في الجزائر،والنمط المعيشي للفرد الجزائري،وفق مقتضيات التحولات الجدلية في علاقة البنى الفكرية،بالتطورات التاريخية والاقتصادية الحاصلة.

والانتعاش الكبير الذي يعرفه النقد الفرنكفوني في الجزائر اليوم،هو نتيجة دخول النخب الجامعية الأكاديمية،مجال الدراسات العلمية ضمن تخصصات الآداب واللغات،وتحليها بمنظورات منهجية،أقرب ما تكون من الموضوعية.وهذا ما مكن النقد التنظيري الفرنكفوني في الجزائر،يتبوأ مكانته الهامة على

صعيد الحياة الفكرية الوطنية والعالمية.ويبقى دائما مجال الرؤية المتحولة والحوارات المثمرة،سبلا ناجعة لتجسيد اندفاعات قوية،تمكن من إنتاج المزيد من الطروحات النقدية المميزة.